طريق اللاعودة

طريق اللاعودة

مجموعة قصصية

مجموعة مؤلفين

طريق اللاعودة

مجموعة قصصية

تأليـــــــــف : مجموعة مؤلفين

تصميـــم الغـــلاف : محمد مجاهد

تدقيـــق لغـــوي : صفاء سعود

إخـــــراج فنـــي : أحمد سيف الإسلام

رقـــم الإيـــداع : 2018/22368

الترقيـم الدولـي : 978-977-6689-03-9

كاريزما للنشر والتوزيع

٩ شارع مسجد المغفرة المتفرع من شارع العشرين

بجوار مدارس حسام الدين الخاصة . فيصل . الجيزة

موبايل: ٠١٠٦١٨١٣٣٤٥ / ٠١١٢٦٠٢٦٦٩١ / ٠١٠٠٩٨٢٣٩٨٤

جميع الحقوق محفوظة ©

أي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية، بأي وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

الكاتبة في سطور

»» ميرفت البلتاجي

ـ كاتبة روائية وقصص أطفال
ـ عضو اتحاد كتاب مصر

صدر لها:

ـ «أماليا» عن دار الفؤاد لعام ٢٠١٤
ـ «حارسة القصر» عن دار الفؤاد لعام ٢٠١٤
ـ «ألا تلاقيا» عن دار الرسم بالكلمات ٢٠١٥
ـ «ناريسا» ملحمة عشق ودماء عن دار الفؤاد عام ٢٠١٧
ـ رواية «CPR» عن المكتبة العربية للنشر
ـ سلسلة للأطفال «نوبيان ونيروز» عن دار شهرزاد
ـ رواية «الدفان» عن دار المثقفون العرب
ـ كما لها «مجموعة قصصية للأطفال» تحت الطبع.

الحاصـــد

ترتدي الفِيلا أسـدنة الحزن السـوداء، انطفأت مصابيحها الخارجية التـي لطالما أضفـت جوًا من البهجـة والفرح، وتم الاكتفـاء بمصابيح شحيحة الضوء في كل غرفة، كان هذا طلبه الذي أصر عليه.

ولم يكن حالها من الداخل أفضل، فقد انطفأت الابتسـامات والوجوه الضاحكة، واستفردت الدموع بالمشهد العام بين كل الوجوه الكالحة.

ركضت الابنة الصغرى نحو أمها التي احتضنتها بلهفةٍ، ثم سألتها بنحيبٍ:

«هل..؟»

هزت أمها رأسها بقوةٍ وهي تحتضن رأسها:

«لا...ليس بعد، هو بانتظارك لتودعيه».

انهارت الفتاة في بكاءٍ شديدٍ وهي تهز رأسها:

«لا أسـتطيع.. لا أسـتطيع أن أراه وهـو بهذا الشـكل، ضعيفًـا واهنًا، يوشك الموت أن يحقق عليه انتصاره».

مسدت الأم شعرها وطمأنتها:

«الموت ليس المحطة الأخيرة، أبوك سوف ينتقل لعالمٍ أفضل».

هزت الابنة رأسها بقوةٍ والدموع تقتات من وجنتيها الشاحبتين:

«شعوري ليس أفضل وأنتِ تكذبين، تعرفين مثلي أن حنانه كأبٍ لن يغفر له خطاياه وذنوبه، لن يذهب للعالم الذي يذهب له الصالحون، ماما أكاد أحترق للمصير الذي ينتظره».

احتضنتها الأم بقوة تهدئ من روعها وتهمس في أذنها:

«أخبرتك أنني سأهتم بهذا الأمر، وأعدك أن يذهب أبوكِ للمكان الذي يستحقه رجل رائع مثله، ولو كانت ذنوبه بحجم الجبال».

نظرت لها الفتاة بدهشةٍ:

«تبدين واثقة تمامًا».

هزت الأم رأسها:

«نعم.. سوف.. آه، لقد جاء».

«من هو الذي.. أمي..».

تابعت أمها التي ركضت باتجاه الباب وفتحته؛ لتستقبل رجلًا غريب الهيئة، اقشعر جسد الفتاة لمجرد مروره من جوارها، ورائحته النتنة تتبعه وتلقي بثقلها على الهواء، حتى أن بعض السيدات نهضن مسرعات للحمام يتقيأن.

قاومت الشعور بالغثيان، ولحقت بأمها تمسك بذراعها قبل أن تدخل خلف الرجل:

«انتظري، من هذا الرجل الكريه الرائحة؟ ولماذا يدخل لأبي؟».

أمسكت بيديها وهي تهزها بقوةٍ وثقةٍ:

«هذا من سيخلص والدك من خطاياه».

عادت الفتاة تنظر بذهولٍ شديدٍ لظهر الرجل واقفًا أمام فراش والدها، يبدو أطول من أي رجلٍ عادي، لا شيء يظهر منه، لا وجه ولا يدين ولا أقدام. يرتدي عباءة تُخفي كل معالم جسده من قدميه، وحتى القلنسوة التي تغطي رأسه ووجهه، اعترضت الفتاة بخوفٍ، ولكن أمها لم تسمح لها وأغلقت الباب.

يعلم أنه اقترب من الموت كما يحدث من قبل طوال عمره البالغ ستون عامًا، هل سيتحسر على تلك الدنيا ويتمسك بها، ربما ينشب أظافره في آخر أنفاسه كي لا تتركه وتولى.

يسمع بينما عيناه مسترخيتان باستسلام، بانتظار ملاك الموت، هل من عادته زيارة الموتى قبل الأجل؟

يشعر به يقترب.. يقترب.. رائحته الكريهة النتنة تكاد تلتهم كل ذرة هواء في الغرفة المحكمة التهوية، أخذ يتساءل..

هل يستعد؟.. هل سيشعر بتنميل في أطرافه السفلية أولًا؟.. صوت ابنته الصغيرة الباكي يصل إليه وكأنه من مجرةٍ أخرى.. إذًا فهو الموت..

يـزداد اقترابًا وتزداد الرائحة نتانةً، يشـعر وكأنه سـيصحو وسـيؤجل الموت ليومٍ آخرٍ..

صوت حفيف ثوبٍ ثقيلٍ يكاد يلمس يده المتوسدة جانبه..

يبدو أنه لم يستطع الصمود وهذه الرائحة تغتال كل أحلامه عن الموت الهـادئ، حتـى رغم كل خطاياه، ما يزال يأمل في الرحمة وحسـن الخاتمة.. فتح عينيه فجأة، لتضيقان في نفس اللحظة وكأنه يحاول أن يدرأ عن نفسه خطرًا محدقًا، لا يعرف كنهه، فذلك الرجل المهيب الكريه الرائحة، المتلفع بالسواد، لم يبدو حقًا كملاك الموت، ربما هو حقًا..

خيل إليه أنه يلمح ابتسـامة شـامتة من ظلام القلنسوة السوداء، كيف يرى ابتسامة رجلٍ، ملامحه غير واضحة، وكأنها غير موجودة؟

اذدرد ريقه بحشرجةٍ قويةٍ، ثم سأله بصوتٍ يرتعش كأوصاله:

«مـ.. مـ.. ن أنت؟».

ربـما لو كان قد ذهب للجحيم مـن قبل لوصف هذا الصوت أنه قادم مـن هنـاك، ولكن ربما يعتبر هذا هو الوصف المثـالي لذلك الصوت الذي أجابه، قادم من الجحيم، ومتهكم أيضًا:

«ألا تعرف حقًا.. من أنا؟».

حـاول ازدراد ريقه مرةً أخرى، ولكنـه كان جافًا كعود حطبٍ نخرته الشمس لسنوات:

«هل.. هل.. أنت.. هو.. ملاك الـ.. موت؟».

ضحكة ساخرة مجلجلة، ولكنها أرعدت أوصاله المفككة بالفعل، ثم اقترب بوجهه، أو بالقلنسوة ليلفح وجهه بأنفاسه الكريهة كرائحة البيض الفاسد:

«كلا يا صديقي، ربما تتمنى لو كنت هو.. أنظر».

خرج من أحد أكمامه ما يشبه اليد، ولكنها ذات أصابع رمادية شديدة الطـول والنحول، أشـبه بمخالب طائرٍ ضخمٍ، اتجهـت أنظاره إلى حيث يشير، كان على بطنه رغيف من الخبز.

تساءل بدهشةٍ:

«من.. كيف.. ما.. هذا؟».

جاءه الصوت الكريه يهمس في أذنه مرة أخرى:

«ألم يداعـب هذا ذكرياتك.. منذ كم سـنة.. خمس.. عشر.. عشرين؟ السنوات حيث أنا لا معنى لها».

فغـر فاهه وهو يتطلع له. يـكاد جلد وجهه يتسـاقط من الرعب وهو يشهق بفزعٍ:

«أنت.. أنت هو.. هو».

اعتدل في وقفته وأجابه بنبرة انتصار:

«نعم.. أنا هو».

ثم نزع القلنسوة عن رأسه، ليصرخ مرةً أخرى:

«ولكنك.. ولكنك».

أجابـه وهو يفتح فمه الكبير، من الأذن للأذن، وتظهر أنيابه الشـائكة كسمة البيرانا:

«نعـم.. أنا هنا لألتهم خطاياك، وروحك، وكل ذكرياتك، كما فعلت بي أنا صديقك الوحيد».

صرخ بفزعٍ:

«لا.. لا لقد كنت أساعدك لتذهب للعالم الآخر بدون خطايا».

هدر صوته كانفجار جبلٍ:

«لذلك استدعيته، وهو التهم خطاياي وروحي».

أكمل ولكن بأصوات كثيرة:

«نحن أصبحنا أسراه، ولم نسـتطع العبور، وأصبحـت مهمتنا، التهام المزيد من الخطايا والأرواح».

وقبـل أن يصرخ ويطلب النجدة فتـح آكل الخطايا فمه الكبير؛ ليلتهم رغيف الخبز وروحه.

الكاتب في سطور

»» محمود محمد عبد العال

ـ كاتب سكندري
ـ بكالوريوس تجارة شعبة محاسبة
ـ يعمل كمدير تحليل نظم
ـ عضو في فريق صرخة فزع الأدبي
ـ صدر له رواية «سجين برهوت» عن دار ملتقى المعرفة لعام ٢٠١٨
ـ اشترك في العديد من الكتب الجماعية منها:
- صرخة فزع ١
- صرخة فزع ٢
- الطلسم الملعون
ـ له عدة أعمال أخرى تحت الطبع.

إسماعيل

دقت الساعة معلنة العاشرة. في نفس الوقت يوميًا يمر إسماعيل، الذى حدثتك عنه من قبل.

ماذا؟.. تقول لا لم أُحدثك..

إذن أعرني انتباهك. كان إسماعيل شاردًا، كطفل ضل أمه في سوق بمدينة غريبة، أشعث الشعر، كثيف اللحية، باكيًا.. هل رأيت من قبل مجذوبًا يبكي بحرقة دائمًا؟

لا..؟ حسنًا..

الآن رأيت إسماعيل. آه، لو تعرف ما حدث له.

كان طفلًا يافعًا يحمل على عاتقه إرثًا ثقيلًا، هو أنه الابن الذكر الوحيد في عائلة العبيسي بأكملها. ربما هي لعنة أصابت رجالهم، فقتلت كل كروموسومات الY، فأصبحوا لا ينجبون إلا إناثًا. لذا فقد كان إسماعيل مدللًا، وسيمًا، ذكيًا.

ولكن هل يصح أن أروي لك قصة إسماعيل دون ذكر يوسف وعلي وخالد؟

كانوا رفاق طفولته، ولكن ليس كل الرفاق يتحابون. كانوا يكرهونه؛ ربما لأنه غني أكثر مما يجب، أو لأنه وسيم أو ذكي، أو لأن جميع مراهقات القرية ترغبن في التقرب منه أكثر مما يجب. أو ربما لأنهم أشرار أكثر مما يجب. كانوا يكرهونه وكفى.

اتفق المراهقون الثلاثة على إسماعيل الذى فشلت كل حيلهم؛ للتحقير من شأنه أمام أصدقائهم من أبناء القرية، إلى أن اقترح عليّ أن يجروا معه تحديًا للشجاعة، يظهر بعده جُبنه أمام فتيان وفتيات القرية. كان التحدي هو البقاء لليلة كاملة داخل بيت «النجولي»، على أن يكون إسماعيل هو صاحب الليلة الأولى، ثم يتوالون الواحد تلو الآخر، وقبل إسماعيل التحدي.

تقول أنك لا تعرف بيت النجولي؟ عزيزي أنت كثير الأسئلة ولكن لا بأس. هو بيت مهجور، يخاف الجميع الاقتراب منه. بالنهار يبدو موحشًا ومخيفًا جدًا، وفي الليل يحترق حتى تأتى عليه النار تمامًا، وكالعنقاء الأسطورية يُبعث في الصباح وكأن شيئًا لم يصبه.

هل تعني نظرتك هذه ياعزيزي أنك تتعجب أو أنك لا تصدقني؟ نعم هو يحترق كل ليلة، وبالنهار يبدو كأن شيئًا لم يكن. مالغريب في هذا!.

نعود إلى إسماعيل الذى اتفق مع الثلاثة على الدخول قبل المغرب بساعة، والبقاء في البيت حتى الفجر. لكن المسكين لم يكن يعلم أنهم سيغلقون الباب عليه من الخارج بقفلٍ ضخمٍ. ويقفوا يتراقصون على صوت صراخه وتوسلاته لنصف ساعة، ثم ينصرفوا ضاحكون.

أخذ يبكي بحرقة وهو ينظر إلى معالم البيت الذى سيسجن بين جدرانه لليلة كاملة، إلا لو عرف بعض أعمامه ما حدث وأتوا لإنقاذه.

كان البيت من طابقٍ واحدٍ، وبهوٍ واسعٍ تطل عليه الغرف، غرف كثيرة تتعدى العشرة. على الرغم من أن هيئة البيت من الخارج لا توحي بهذا العدد أبدًا. وما هي إلا لحظات وأخذ الضوء ينحسر تدريجيًا. توجه المسكين إلى البقعة المضيئة الباقية محتميًا فيها من الظلام المحيط به. إلى أن بدأت البقعة تتناقص وتتناقص حتى وَدَّع البهو ضوء النهار، واختفت في الظلام كل المرئيات. الوحدة والظلام والبرودة أضلاع مربع الرعب الأبدية.

ماذا؟ تقول أن هؤلاء ثلاثة وللمربع أربع أضلاع. لو انتظرت قليلًا يا عزيزي ستعلم الضلع الرابع ولكنك تقاطعني دومًا..

حسنًا حسنًا لا بأس..

حسنًا لا تلح سأكمل ولكن ذكرني إلى أين وصلنا؟

نعم نعم الوحدة والظلام والبرودة. كان الجو شتاءً وبدأت الأمطار تهطل بغزارة، ثم ازداد الأمر سوءًا؛ لتبرق السماء، فيضيء البهو لحظيًا قبل أن تهتز الجدران بصوت الرعد الغاضب.

تكوم إسماعيل على نفسه في أحد الأركان طلبًا للدفء. وفي وسط الظلام وصوت المطر المتزايد تدريجيًا، وعلى الرغم من شدة خوفه راح في غفوة، لم يوقظه منها إلا طرقة عنيفة. انتفض من غفوته معتقدًا أنها هزيم الرعد وشد مجامع ثوبه على صدره طلبًا للدفء، قبل أن يسمع الطرقة الثانية والثالثة متتابعتين. ولكن انتصب شعر جسده حرفيًا عندما رأى ضوء خافت ظهر في إحدى الغرف، كأنه ضوء شمعة أوشكت أن تنتهى، تحاول أن تبدد ظلام البيت ولكن بلا فائدة. حاول الاقتراب من الغرفة ولكن قدميه وكأنهما تحملان أطنانًا من الخرسانة المسلحة ثبتتها إلى الأرض. جاهدًا حاول مرةً أخرى الحركة، فاستجابت.

بخطوات متثاقلة اقترب. فجأة أضاء البيت بأكمله، فأوجل وسقط أرضًا. قبل أن يتبين أنها إحدى تحذيرات البرق من الهزيم القادم. قام يحاول تمالك أعصابه التي تهلهلت تمامًا، واقترب من الغرفة مرة أخرى؛ ليرى في منتصفها شمعةً مضاءةً شمعةً وحيدةً خافتةً، وبجوارها شموع

أخرى ولكنها مطفأة. وكأنها جثث في مقبرة للشموع تنتظر احتضار الشمعة الاخيرة.

أراك تبتسم وتصفق، ماذا؟ هل أعجبك التشبيه؟

ياعزيزي لقد كنتُ من الأوائل في البلاغة، ما رأيك أن أحدثك عن مدرسة أبوللو الشعرية؟

آه، نعم نعم، إسماعيل حسنًا، ولكن لا تسُبَّني مرة أخرى وإلا سكتُّ ها.

جيد اتفقنا. نعود لإسماعيل الذى تعجب من هذه الشمعة التي تلفظ أنفاسها الأخيرة. فهي لم تكن موجودة من قبل، وإلا شَعَر بضوئها عندما حل الظلام، من أشعلها؟! ثم لماذا أشعلها وحدها دون غيرها؟

الشموع حولها كثيرة، ومن يطلب الضوء أو الدفء بالتأكيد سيشعلها جميعًا. وقف يفكر في الأمر أمام باب الغرفة، وقد خشي تمامًا دخولها، إلى أن سمع صوتًا هامسًا مجهدًا يقول له: «تركوك وحيدا أليس كذلك؟».

ثم بدا الصوت وكأنه يضحك بإجهادٍ شديدٍ. مرتجفًا قال إسماعيل: «ممن أاانت؟».

لم يجد ردًا.. واختفى الصوت تمامًا.. حتى المطر كف عن الهطول، ومعه توقف الرعد والبرق، وتزايد ضوء الشمعة حتى صار طبيعيًا.

شـعر إسـماعيل لوهلةٍ أنه كان يتخيل أو يحلم، وولى عائدًا إلى الركن الـذى كان متكـورًا فيـه. بمجرد أن التفت، شـعر بقوةٍ خفيـةٍ تجذبه من الخلف، وتلقيه بقوةٍ؛ ليصطدم بالجدار المقابل للباب، والصوت الهامس صار غاضبًا، وهو يقول: «لا أحد هنا يرحل دون أذن كيرموس.. لا أحد يولي ظهره لكيرموس.. لا أحد يدخل هنا دون أن يخضع لكيرموس».

بصعوبـةٍ حاول القيام مقاومًا آلام ظهره إثـر الاصطدام، نظر حوله باحثًـا عن مصدر تلك القوة التي حملتـه وصدمته بالجدار، فلم يجد غير جـدران عاريـة من كل شيء حتـى الدهـان. ومن مكانه وعـلى الضوء الخافت للشمعة التي أوشكت أن تلحق بصويحباتها في العالم الآخر-إن كان للشـموع مثل ذلك- رأى كتلةً سـوداء، كأنها قزم يجلس مسـتندًا على الجدار المجاور له، وبمجرد أن استقر ناظريه عليه، علت ضحكات الكيان، وهو يقول: «لا أحد هنا غير كيرموس وغيرك... ما اسمك؟».

نظر إسـماعيل نحـوه متعجبًا هيئته التي لا توحي أبـدًا بما يملك من قوة، قائلًا وهو يتأوه من آلام ظهره «إسماعيل.. اسمى إسماعيل».

قـام الكيان من مكانـه، واقترب بقامته التي لم تجاوز المتر، حتى سـقط ضوء الشمعة اليتيمة على وجهه؛ لتبدو ملامحه جامدة كأن وجهه قد صنع من البلاسـتيك، إلا أن عينيه اللتين انعكـس عليهما الضوء الخافت، كانتا شديدتي اللمعان. مما زاد من ارتجاف إسماعيل وهو يسأله «من أنت..؟»

«جني، أليس كذلك؟»

شعر بقوة تجذبه للأسفل حتى سقط على وجهه، ثم سحلته حتى أصبح ملقًى على وجهه بين يدى الكيان الذى اتقدت عيناه بصورة مرعبة، وهو يقول بغضبٍ:

«أنا كيرموس القديم.. الذى يتغذى على الشرور.. أنا كيان من القدماء، لست من الجن، الجن لا يجرؤون على الاقتراب من هنا. طالما كان كيرموس حيًّا».

ثم أشار إلى الشمعة المتبقية قائلًا: «ولكن يبدو أنهم اقتربوا بشدةٍ هذه المرة».

اعتدل إسماعيل قائلًا: «ولكننى لم آتي إلى هنا بإرادتي، لقد حبسني أصدقائي وانصرفوا، ادعوا أنه تحدي لمدة ساعة، ولكنهم كانوا مخادعين. أرجوك لا تقتلني فلا ذنب لي «لمعت عينا الكيان بقوة واقترب من إسماعيل وكأنه يتشممه، ثم أغمض عينيه وهز رأسه قائلًا: «أنت لاتملك ما أريد، ولكنك ستساعدني وإلا قتلتك».

أوجل إسماعيل عندما سمع تهديده وقال: «وكيف أساعدك لأنجو بنفسي».

اقترب الكيان منه وجذبه؛ ليلتصق وجهيهما، ثم قال في صوتٍ كالفحيح «أصحابك الذين حبسوك أريدهم هنا غدًا.. دون تأخيرٍ..

ولو فعلت ذلك فلن تنجو بنفسك فقط.. بل سأمنحك الكثير. خذ هذه، قالها ومد يده بلؤلؤة صغيرة ظهرت في كفه فجأةً، فالتقطها إسماعيل منبهرًا بلمعانها برغم الظلام. فقال الكيان «سأعطيك المئات منها، وسأحقق انتقامك من أصدقائك، طالما أنك ستطيعني في ما آمرك به. والآن أذهب أمام الباب، ومر من خلاله ستجد نفسك في الخارج. ولكن احذر أن تحاول خداعي، كيرموس لا يسامح أبدًا من يحاول خداعه. سأقتلك حينها ولو كنت في فراشك بين أهلك. ثم اقترب بوجهه من إسماعيل قائلًا بفحيح مرعبٍ «هل فهمت؟»، سأقتلك لو حاولت خداعي ولم تحضرهم هنا.

توجه إسماعيل نحو الباب واقترب منه ومد يده؛ ليشعر بها تنفذ من خلال الباب، وتضربها البرودة في الخارج، فتشجع وعبر، ثم جرى يقطع الطرقات متوجهًا إلى بيته.

ظل طيلة الليل مستيقظًا، يتأمل اللؤلؤة وقد عزم على عدم الرجوع إلى البيت ونسيان الأمر برمته. على أن يجد وسيلة ينتقم بها من أصدقائه الثلاثة، إلى أن غلبه النوم فرأى نفسه بداخل البيت، يقف أمام كيرموس الذى كان غاضبًا بشدةٍ، ويصرخ قائلًا:

«لا أحد يعبث مع كيرموس.. لا أحد يخدع كيرموس.. لا أحد ينجو من كيرموس..». ثم أشار بيده ليسمع إسماعيل فحيحًا غاضبًا، نظر تجاه الصوت فرأى ثعبانًا ضخم الرأس له قرن مدبب، غير أن عيناه لم تكونا

مشقوقتين طوليًا، بل كانتا مستديرتين كعيون القطط. فحيح من الجانب الآخر.. تبعه ثالث.. ورابع.. كان محاطًا بالثعابين من كل اتجاه.

نظر إلى الكيان؛ ليستغيث به، ليفاجأ به قد ارتفع عن الارض، ويجلس على الهواء بطريقة مذهلة كأنه هندي وصل إلى حالة متقدمة من النيرفانا. وبينما هو يتابعه في ذهول، شعر وكأن تيارًا كهربائيًا صعق ساقه جراء قضمة من أحد الثعابين، تلتها ثانية في ذراعه وثالثة في ظهره. أخذ يتلوى محاولًا نفض الثعابين عن جسده، قبل أن يهجم أحدهم على رقبته فاستيقظ صارخًا من نومه والعرق يغمره بشدة؛ ليجد الكيان يقف عند مؤخرة فراشه وبيده الشمعة التي تحتضر، ويقول بغضبٍ: «لقد حذرتك من خداع كيرموس ..»، ثم حرّك يده فوق الشمعة، فزاد لهيبها بشدة حتى اشتعلت ستائر الغرفة وطالت النار الدولاب الخشبي.

شعر إسماعيل أن الغرفة ستحترق بأكملها فأغمض عينيه، وأخذ يصرخ بقوةٍ على أحدٍ يسمعه من أهله ويأتي لإنقاذه. قبل أن يشعر بيد تمسك بذراعه وتجذبه بقوة، ففتح عينيه؛ ليرى وجه أمه التي أتت من غرفتها على أثر صراخه، وهى تبسمل وتحوقل ثم قالت له: «لا بأس يا إسماعيل، لقد كان كابوسًا».

ود لو يخبرها بكل شيء.. ود لو يخبرها بهذا الكابوس المركب الذى لم يمر بمثله من قبل.. ولكنه خشي من انتقام كيرموس.. فصمت. وقرر أن ينفذ ما طلبه منه الأخير وهو ما تلاقى مع رغبة الانتقام في نفسه.

في الصباح كان إسماعيل في حالة غير التي توقعها أصدقاءه الثلاثة، كانوا يعتقدون أنه سيأتي محطم الكبرياء، ذليل النفس بعد الليلة التي قضاها في بيت النجولي. ولكن آمالهم خابت تمامًا، وزاد إحباطهم أكثر بعد أن عرض عليهم إسماعيل اللؤلؤة، وخدعهم بأن هناك كنز في البيت. ولكنه يحتاج إليهم جميعًا لحمله، لذا فعليهم أن يلتقوا في البيت ليلًا حتى يتدبروا هذا الأمر..

ولكن يجب أن لا يخبروا أحدًا أبدًا عن وجهتهم ولا حتى أهليهم.

أراك تهز رأسك استحسانًا.. هل أعجبتك الحيلة؟.. ألم أخبرك أن إسماعيل كان ذكيًا؟!..

حسنًا سأكمل.. ولكن أعتقد أنهم أعدوا طعام العشاء، هيا بنا إلى البيت، وسأكمل لك ونحن نتناول الطعام.

مع غروب الشمس، وصل الأصدقاء الثلاثة إلى البيت؛ ليجدوا إسماعيل ينتظرهم أمام الباب. لحظات وكانوا بداخل البيت يتحسسون خطواتهم بين الظلام والبرد القارص. لاحظ خالد ضوءًا خافتًا يأتي من الغرفة الجانبية، فأوجل ثم قال: «ما هذا الضوء الذى يأتي من تلك الغرفة؟

التفتوا جميعًا تجاه الغرفة، وقد بدا على وجوههم أنهم سيفرون حالًا من البيت، فطمأنهم إسماعيل: «بينما كنت أنتظركم دخلت إلى البيت

قبل الغروب، وأشعلت تلك الشمعة في الغرفة التي تحتوي على الكنز؛ حتى لا يصبح المكان مظلمًا تمامًا حين ندخله بعد غروب الشمس». هدأوا بل وتشجع يوسف وخطا نحو الغرفة، وتبعه علي وخالد بينما أخّر إسماعيل نفسه قليلًا؛ لينتظر ما سيحدث.

وحين لم يسمع شيئًا اقترب من الباب، وبمجرد أن خطا بيمناه داخل الغرفة سمع صرخات رهيبة من حناجر أصدقائه الثلاثة. فتسمر مكانه فزعًا، كانت الصرخات تتعالى وكأنهم يتعرضون لنزع جلودهم عن أجسادهم مصحوبة باستغاثات غير مفهومة، ثم تحولت الصرخات إلى حشرجة مريعة قبل أن تهدأ تدريجيًا.

ثم توقفت تمامًا.

انتظر إسماعيل لحظة بعد هدوء الصوت ودخل الغرفة. تحول أصدقاؤه إلى جثث جافة ، وكأنما شويت لحومهم دون أن يحترق الجلد، ولكنه تيبس بصورة عجيبة. الشمعة التي كانت تحتضر زاد لهيبها، ولكن لم تكن وحدها السبب في زيادة الضوء في المكان، بل عاونها في ذلك ثلاث شمعات أخرى، تأجج لهيبها الذى كان يهتز بقوة كأنما يصارع الريح من أجل بقائه مشتعلًا، ثم هدأ واستقر. كيرموس أصبح أضخم وأكثر غضبًا من ذى قبل حتى تجاوزت قامته المترين بقليل، وكان ينفث من فمه دخانًا أبيض اللون.

اقـترب من إسـماعيل وأمسـكه من مجامـع ثوبه، ورفعـه لأعلى وهو يقـول: «كنـت أعلم أنك عاقـلًا.. جائزتـك..» ثم أنزلـه على الأرض ووضـع في كفيـه ثلاثة لألِيء، وقـال: «هذا عهدي معك.. سـتحضر لي أرواحًا شريرةً، وسأعطيك لؤلؤة عن كل منها..»

فاتسـعت عينا إسـماعيل وقال وهو يشير إلى جثث أصدقائه الثلاثة: «ولكـن هـذا لم يكـن اتفاقنا.. لقـد اتفقنا أن أحضر لك هـؤلاء على أن تمنحني الكثير من اللألِيء ثم ينتهي الأمر..»

صرخ الكيان بغضب «كيرموس هو من يشترط.. كيرموس هو من يقـول والجميع يخضـع .. الجميع يخضع في صمـت.. ومن يخضع لأمر كيرموس ولو لمرة، فلا سبيل له للعودة إلا بالموت..».

انفعـل إسـماعيل وألقى ما بيده مـن لألِيء بعد أن أحـس بتورطه في الأمـر، وقـال وهو يجز على أسـنانه «لن أفعل.. لن أتسـبب في قتل أحد آخر.. حتى لو قتلتنى الآن..».

ارتفع لهيب الشموع المشتعلة بشدة، بينما انتفخت أوداج كيرموس، وتصاعـدت من أنفه وفمه أبخرة بيضاء شـديدة السـخونة. وهو يقول بصوتـه الذى يشـبه الفحيـح والذى يعنى شـدة غضبـه: «كيرموس لا يمتـص غـير أرواح الأشرار.. أمـا أنت فروحـك لن تنفعنـي.. ولكن لديك شيء آخر مميز.. كيرموس يحتاج هذا الشيء..». ورفع كيرموس يده ووضعه على رأس إسماعيل، ليصرخ بقوةٍ، ثم أظلم كل ما حوله.

ومن يومها أصبح إسماعيل كما ترى. لماذا تفتح فمك هكذا..؟

آه إذن لم تفهم..!

حسنًا سأخبرك..

لقد كان إسماعيل يملك ذكاءً شديدًا، وهو ما شعر به الكيان من خلال الخدعة التي دبرها إسماعيل لإقناع أصدقائه بالدخول للبيت، فقام بامتصاص عقله؛ ليصبح المسكين فاقد العقل كما تراه الآن..

ماذا..؟ تتساءل كيف عرفت كل هذا؟ ياعزيزي الجميع في هذه البلدة يعرف ما حدث لإسماعيل.. ولكن للحق أنا أعرف أكثر.. هل ترى تلك الغرفة؟

تعال معي.. تقدم لا تخف.. نعم نعم الكثير من الشموع المشتعلة.. ممتاز يا عزيزي تملك قوة ملاحظة.. بالفعل هناك شمعة منطفأة..

وإذن فهذا بيت النجولي كما لم تلحظ اللافتة المعلقة على الباب الخارجي.. وإذن فأنا كيرموس.. كيرموس القديم. ما بك يا عزيزي.. أرجوك لا ترتجف.. ودعنا ننهي الأمر سريعًا.. صدقني لن تشعر بأى ألم..

هيا اقترب.. اقترب ولتشتعل الشمعة الأخيرة.

(تمت)

الكاتب في سطور

»» إسلام سمير عبد الرحمن

ـ كاتب روائي سكندري

ـ مدرس خبير حاسبات وقواعد بيانات

ـ حاصل على دبلومة خاصة في علم النفس

ـ له أعمال منفردة هي:

١ - الخصم الملعون العدد الأول من سلسلة صائد الشياطين صدر منها الطبعة الثانية دار شهراد.

٢ - القادم على الهشاء صدر عنها الطبعة الثانية مجموعة قصصية عن دار زين.

٣ - رواية أوتار الكون الجزء الأول من ثلاثية دومينو عن دار شهرزاد

ـ عضو مؤسس لفريق صرخة فزع الذي أصدر الكتابين ١ و ٢ من سلسلة كتب صرخة فزع، شارك في العديد من الكتب الجماعية منها ميكروفيكشن ٦٦٦ ثلاثية زودياك الطلسم الملعون،

ـ وله رواية أبو الكرامات تحت الطبع دار زين.

ـ رواية محركوا الدمى الجزء الثاني من ثلاثية دومينو دار شهرزاد.

ـ وله مشاركات في العديد من الكتب الجماعية تحت الطبع

ماتريوشكا

قال «ناجي سعيد» أن لقاءه مع «جالينا ماكاروفا» كان أجمل ما حدث له في حياته كلها، يمتلك «ناجي» شعرًا توجه الشيب المبكر بتاج الوقار. وهو ما يزال في الثامنة والأربعين من العمر. ورغم مرور ما يقرب من العشرين عامًا على زواجه من «جالينا» إلا إنه لا يزال يتذكر تاريخ اليوم الذي قابلها فيه لأول مرةٍ. يوم ٢٥ يناير ١٩٩٨ كانت الأضواء تزين مباني جامعة «لومونوسوف»، والأناشيد والصخب يملأ أركان المبيت الطلابي. وقتها كان «ناجي» يدرس الطب وأمل استكمال دراسة «الماجستير» يداعب أعماقه، عندما خرج مع مجموعة من زملاء الدراسة ليستمتعوا بالاحتفال. بدأ الشباب والفتيات يرقصون رقصة ذات إيقاع سريع تنتمي للفلكلور الروسي، في حين اكتفى هو بالتصفيق. وعندما التفت إلى يمينه كانت تقف متمايلة مع الإيقاع الذي ملك عليه حواسه. كانت تقف بقامة ممشوقة ترتدي ثوبًا مزركشًا فضفاضًا، وتضم خصلات شعرها الأشقر الجميل بغطاء

رأس أحمر زاهي تربطه حول عنقها، وتنسدل خصلات شعرها على جبهتها في مشهد طفولي.

عندما وصل إلى تلك الذكرى أغلق عينيه وهمس:

- كانت فاتنة، ذلك المزيج الفريد بين الطفولة والأنوثة والاحتشام والبراءة ملك عليّ لُبي وحواسي، وجدتني ألتفت نحوها لأقول في خفوت بالروسية التي أصبحت أجيدها كأهلها:

- أنت أجمل فتاة تلك الليلة.

وقتها ابتسمت عن أسنان نضيدة منتظمة كاللؤلؤ، وتناولت كفي؛ لتصحبني إلى ساحة الرقص، تعرفت عليها في تلك الليلة.

وعرفت أنها تدرس الهندسة ولكنها منصاعة لرغبة والديها ولا تدرسها عن حب. أصبحنا لا نفترق وكلما نظرت إلى وجهها وتصفيفة شعرها وغطاء شعرها الأحمر ـ الذي عرفت أنها تمتلك منه عشرات الأشكال ـ شعرت أنها تقلد وبدقة تلك الدمية التي يعتبرونها أحيانا شعارًا لروسيا. دمية الماتريوشكا الشهيرة التي تتكون من عدة دمى خشبية مجوفة توضع بداخل بعضها البعض، والتي تمثل فتاة ترتدي زيا فلكلوريًّا، وتضم شعرها الأشقر بغطاء رأس أحمر.

وفي الكريسماس قمت بشراء دمى الماتريوشكا المتداخلة وأهديتها

لهـا. رأيت نظرة إعجـابٍ وتبجيل في عينيها الزرقاوتـين، وطبعت قبلة رقيقـة على وجنتـي لتصطحبني إلى غرفتها؛ لأجد عـشرات النماذج من تلـك الدمية تغطـي أرفف المكتبة. واقتربت برأسـها مـن أرفف المكتبة لتصير دمية كبيرة وسط الدمى الخشبية الملونة وقالت لي ضاحكةً:

- هل أشبهها فعلًا يا «ناجي»؟

انتهت من دراستها وأكملت أنا دراساتي العليا في تخصص الباطنة.

- ومتى تزوجتها؟

بدأ يستعيد هدوءه نسبيًا وتراجع في مقعده الوثير ليقول مبتسمًا:

- تزوجنا في أول سـنوات دراسـتي للماجسـتير بعقد مدني بالطبع. فهي أرثوذكسـية وأنا مسـلم. عشـت معها أجمل شـهر عسل في الدنيا، كانت تعشقني وتعمل على راحتي دائمًا، وأنا كنت أعمل على إسعادها في كل حين.

جالينـا كأنثى تعتبر حلـم أي رجل، الأنثى التـي تعرف جيدًا كيف ترعـى أنوثتها. تمتلك أكبر مجموعة من الدهانات والمسـاحيق وأدوات التجميل. تعشق الاهتمام بجمالها وجسدها، دائمًا ما تجد منها رائحة طيبة وكرنفالًا من الرقة والنعومة والتجدد اليومي. تقضي وقتًا طويلًا للغاية في العناية ببشرتها وشـعرها وأظافرها. ذات مرة وجدت شـعرة بيضاء

وحيـدة وجـدت طريقهـا صدفـة، وهي تتحسـس خصلات شـعرها، والأمـر طبيعي تمامًا لأن هذا هو ثمن اقترابنا من حاجز سـن الأربعين. وجدتهـا تتجمـد في رعبٍ وهي تتأمل تلك الشـعرة المتمـردة، والتفتت نحوي لتقول في صوتٍ مختنقٍ:

«ناجي» ما هذا؟

ألقت بنفسها بين ذراعي وهي تبكي قائلة:

- هل سأفقد جمالي؟ هل سيشيب شعري ويتهدل جلدي؟

احتضنتها في حنان وأنا أهمس في أذنها:

- ستظلي دائمًا حبيبتي الصغيرة النضرة.

- متى شعرت بأن هناك مشكلة ما؟

تطلـع إلي المرئيات خارج النافذة، ثم بدأ في طقوس إشـعال غليونه الـذي عاد به من روسـيا. وأصبح ملازمًا له دائـمًا. وعندما نفث دخانه العطر في جو الغرفة، شـعرت به ينفث كل همومه وشجونه وقلقه معه، ونظر إلي ليقول في خفوت:

- أنـت تعـرف أنها تعشـقني عشـقًا، فعندمـا انتهيت من دراسـتي للدكتـوراة، وقررت أن أغادر روسـيا؛ لأبدأ عملي كمدرس في كليـة الطب جامعة القاهرة، قررت أن تعـود معي. تعلمت كل

مـا أحبـه من الأكلات المصريـة وبرعت في ذلـك. كانت والدتي قلقـة عندمـا عرفت بأنني تزوجـت من روسـية، ولكنها أحبتها للغاية عندما رأتها وقضت في صحبتها يومًا كاملًا. كانت تعتقد أننـي تزوجتها لأنها فاتنة ولكن روح «جالينا» توافقت مع جهاز الاستشعار الذي لدى والدتي والذي أخضعتها لمقاييسه ومعايره الدقيقة. أدركت والدتي أن الفتاة تعشق مصر والتقاليد الشرقية. كانت مسـيحية متدينة، ترتاد الكنيسـة بانتظام وتصلى وتصوم. كانـت تعاني عيبًا خلقيًا منعنا مـن إنجاب أطفال. ولكن ذلك لم يهمني كثيرًا؛ لأن حبي لها جعلني أزهد رغبتي في الإنجاب.

يمكنك أن تقول أن خوفها من تأثير عامل الزمن عليها كأنثى شـكل لها هاجسًا صاحبها ليلًا ونهارًا لدرجة أنها بدأت تهمل فروضها الدينية..

وقطع عبارته لينفث دخان غليونه ويقول:

- منـذ عشر سـنوات توقفت عن الذهاب للكنيسـة، وبدأت تغلق عليهـا غرفتها الخاصـة لمدة سـاعة يوميًا، وقالـت لي إنها تصلي. وصل لمنزلنا يومًا ما طرد من روسيا، وعرفت أنها قامت بمراسلة جهة ما؛ ليرسلوه إليها. وقتها لم تكن في المنزل فقمت بفتح الطرد بكل أريحية. ووجدتني أتطلع إلى أجمل دمية ماتريوشكا شاهدتها في حيـاتي. كانت أبعادها مختلفة عـن أبعاد الدمى العادية، كانت

طويلـة يصل طولها لخمسـين سـنتيمترًا تقريبًـا ومطلية بالذهب الخالص. وعندما فتحتها بإدارة نصفيها عكس بعضهما البعض، وجدت بداخلها دمية أقل كثيرًا في الطول، لم تكن الدمية الصغيرة تشـبه الكبيرة في الملامح كما هي العادة، ولكنها كانت لها ملامح طفولية ما. فبدت الدميتـين كأم تحتضن بداخلها ابنتها. وعندما عـادت، رأيـت أعتى علامات الغضب عـلى ملامحها. وقالت لي إنهـا تفضل أن يكون لها خصوصيات. لم يسـبق لها أن تحدثت لي بتلـك اللهجـة العنيفة من قبـل. تركتها تنقل الدميـة الذهبية إلى غرفتها الخاصة التي حوّلتها إلى معرضًا لكل الأشـكال والألوان المختلفة للدمى التي جائت بها من «روسيا».

مـرت الأيـام وفارقها التوتـر وعـادت لطبيعتها المرحة وابتسـامتها المشرقـة، عـادت لنضارتهـا وبهجتهـا وتصفيفة شـعرها المميـزة. كنت مشغولًا في تعضيد مركزي الأدبي في الجامعة وفي أبحاثي ومحاضراتي.

ومـع عبوري لحاجز سـن الأربعين وسـماعي للفظـة العقد الخامس المزعجـة، تأملـت وجهـي في المـرآة، كانـت كل تلـك السـنوات التـي أحرقتها في الدراسة والعمل قد تجمعت واحتشدت وتركت آثارها علي جانبي عيني على هيئة تجاعيد دقيقة متقاطعة. وهناك تلك الأخاديد التي رسـمت نفسـها بين أنفي وفمي، لـن نتحدث عن الشـيب الذي انتشر

وتوغل بجراءة، وبدون تردد في كل أنحاء شعري، ولحيتي التي اعتدت على تركها نامية وتحديدها بحرصٍ؛ لتعطيني سمت العالم الوقور.

وعندما تأملت ملامح «جالينا» التي جلست تحسو اللبن الممزوج بالشيكولاتة، وهي تشاهد فيلمًا كوميديًا وتضحك، ابتسمت لأن الفارق بيننا في السن كان سنة واحدة لصالحي. هي الآن على أعتاب الأربعين ولكن ملامحها تبدوا كملامح شابة في العشرينات. لم تعد هناك أية آثار للشيب في مفرقها، أنا متأكد إنها لا تستعمل الصبغة فأين ذهب الشعر الأبيض؟

- متى شعرت بأن هناك ما يريب؟

صمت قليلًا قبل أن يقول:

- كنا نحتفل بعيد زواجنا السادس عشر في مطعم راقٍ بفندق من فئة النجوم السبعة. وعندما انتهينا من الطعام وجاءت الكعكة الفاخرة التي كنت قد اتفقت مع إدارة المطعم عليها، وقدمت لها هديتي وكانت سوارًا رقيقًا من الماس يليق بمعصمها، دمعت عيناها وهي تقبلني وتقول ببراءة طفلة:

- أحبك وسأبذل كل مرتخص وغالي من أجل أن تحبني طيلة حياتك.

قبلت كفها وقلت في تأثرٍ بالغٍ:

- أنتِ ملاكي وطفلتي الحبيبة التي لم تمسها أنامل الزمن، سيعتقد من يساعدنا الآن إنكِ تجلسين مع والدك.

قلتهـا وضحكت، وكنت أعتقد أنها سـتضحك لدعابتـي، ولكنها صمتت وظهر عليها التأثر الشديد لتقول في صوتٍ متهدجٍ:

- ستظل دومًا طفلي المدلل الذي لن يكبر في عيني أبدًا.

اصطحبتها إلي قرب الفرقة الموسيقية وبدأنا في رقصة هادئة، نتحرك فيها برفق مع أنغام الموسـيقى. هنا لاحظت أنها تتحرك بحرصٍ، وهي تنقـل قدميها في خطواتهـا الراقصة، فنظرت إلى قدميهـا لأجدها تنتعل حذاءً ذي كعبين مرتفعين، تطلعت لها مبتسكانتمًا وقلت:

- كنتـي طيلـة حياتـك تكرهـين الأحذيـة ذات الكعبـين المرتفعـين وتفضلين الأحذية الرياضية، ماذا حدث؟

ضحكت لتقول:

- كنـت أريـد أن أكـون على مسـتوى الحـدث والمـكان الراقي الذي دعوتنـي إليـه. كانـت تتحـرك بإرتبـاك مـن لم تعتـد السـير بتلك الأحذيـة. وعندمـا اسـتندت برأسـها إلى صدري لاحظت شـيئًا غريبًـا، كان رأسـها يـكاد يلامس كتفـي برغم ارتداءهـا للكعب العـالي. كان فـارق الطـول بيننا لا يـكاد يذكـر، إن «جالينا» الآن أقصر من طولها الطبيعي بخمسة سنتيمترات تقريبًا.

- هل فقدانها لطولها بتلك الطريقة كان له أي مبرر طبيًا؟

هز رأسه ونفث المزيد من دخان الغليون، ليقول وهو يرفع منظاره الطبي إلى جبهته، ليغوص وسط خصلات شعره الرمادية المتناثرة علي جبهته، وقال في هدوء من يحاول السيطرة بالكاد على أعصابه:

- طبيًا:- يقل طول الفرد تدريجيًا بمقدار أربعة سنتيمترات تقريبا بداية من سن الأربعين وصولًا لسن الثمانين وذلك لعوامل عديدة منها:

منها تغير انتصاب القامة، والنقص في نمو فقرات الظهر، وانحناء العمود الفقري إلى الأمام، وزيادة الضغط علي الأقراص الليفية بين الفقرات فيه مع عدم تعويضها لحجمها الطبيعي، والزيادة في تقوس مفصلي الورك والركبة، ونقصان المسافة الفاصلة بين العظم على جانبي مفاصل الأطراف العلوية والسفلية ومنطقة جذع الجسم، والتغيرات التي تعتري مفاصل القدمين وتفلطح القوس في أسفلها.

- وبالطبع كل هذا مستبعد مع حالة «جالينا» فهي لم تتم الأربعين عامًا من عمرها بعد.

- طرق هذا ناقوسًا ما في عقلي، ولكنني انغمست في دوامة الحياة اليومية. هناك سبب غامض أدى لفقدان زوجتي عدة سنتيمترات من طولها ولكن الحياة ستستمر.

تكرر الأمر ذات صباحٍ، ولمحت في ذعر تلك الشعرة البيضاء التي ظهرت في شعرها تتحسس طريقها في حذر. وصاحب ذلك ظهورعدة

تجاعيـد دقيقة عـلى جانبي فمها. لـك أن تتصور الانهيـار الذي أصابها وجعلها تعتكف في غرفتها ليوم كاملٍ. كنت أسـمعها تبكي وتبتهل في صلوات بلغةٍ ما، حاولت أن أقنعها بالخروج، أقسمت لها أنني أعشقها كـما هي. ولكـن الأمـر كان بمثابة وسـواس قهري بالنسـبة لها يضغط عـلى أعصابهـا ويطاردهـا في الصحو قبـل المنام. سـمعتها تتألم وتصرخ وحاولـت اقتحام الغرفة ولكنني فشـلت. يمكنـك أن تقول إنني نمت تعبًـا على أريكـة خارج غرفتها. في الصباح وجدتهـا تخرج وهي غاية في التألـق وكانـت حالتها المعنويـة مرتفعة للغاية، عندمـا عانقتني ودفنت رأسـها في صـدري وتطلعت إلى ملامح وجهها، وجـدت أن ما توقعته قد تحقق. لقد اختفى الشيب من شعرها وعادت بشرتها لرونقها الدائم بلا أية تجاعيد وفقدت عدة سنتيمترات من طولها مرة أخرى.

- هنا قررت أن أفتش غرفتها؟

- كان يجـب أن أفهـم، كنـت وقتها قد قـرأت بالتفصيـل عن دمية «الماتريوشـكا» التي تسـيطر بظلالها على حياة زوجتي بالكامل. وعرفـت عنها، أن صُنعت اللعبـة لأول مرة عام ١٨٩٠ من قبل «فازيلي زفيوزدوشـكين». تشـتق تسـمية الماتريوشـكا عن اسم «ماتريونـا النسـائي»، وهـي عبارة عـن دمية مزخرفـة توضع في داخلها دمى أقل حجمًا.

- تعود أكثر الأساطير شعبيةً لظهور الماتريوشكا في روسيا إلى تسعينات القرن التاسع عشر حين اخترع الخراط الروسي «فلاديمير زفيوزدوتشكين» شكل الماتريوشكا الروسية. أما أول زخرفة لها فقام بها الفنان المحترف «سيرغي ماليوتين».

- هناك فرضية أخرى تقول أن الماتريوشكا الروسية معمولة على غرار دمى خشبية يابانية. إلا أن مذكرات «فلاديمير زفيوزدوتشكين» تقول أنه لم يسبق له رؤية لعب يابانية مزخرفة. ثمة معلومات تاريخية تفيد بأن فنانين روس كانوا يصنعون بيضات عيد الفصح الجوفاء القابلة للانفصال.

- ويعتقد بعض الباحثين أن سابقة الماتريوشكا هي صنم وثني ذهبي على شكل امرأة. كان الصقالبة القدامى يعبدونه. وكان هذا الصنم معمولاً من الخشب وفي داخله صنم صغير يمثل حفيدها. عرضت الماتريوشكا لأول مرة عام ١٩٠٠ في معرض باريس العالمي، حيث أحرزت الميدالية البرونزية، مما شجع الفنانين والحرفيين الروس على صنعها بكثرة في شتى أنحاء روسيا. واشتهر معمل في مدينة سيميونوف بصناعة دمية الماتريوشكا التي اكتسبت شكلها الحالي المعروف في العالم كله عام ١٩٢٢.

- يـتراوح عـدد الدمـى في داخل الماتريوشـكا الروسـية من ٣ دمى إلى ٥ دمى. وكلها على شـكل بيضة ذات قعر مسـطح تتألف من القسـمين العلوي والسفلي. وشـهد معرض طوكيو عام ١٩٧٠ عرض أكبر ماتريوشكا تتألف من ٧٢ دمية.

وصمت ليلتفت نحوي ويقول:

- هنـا صممت عـلى تفتيـش الغرفة لأن تلـك الدميـة الذهبية التي وصلت من روسـيا وغضبت؛ لأنني شـاهدتها تقول المعلومات التي جمعتها إنها إله وثني ما. اسـتطعت أن أسـتغل فرصة غيابها عن المنزل وكنت قد انتزعت مفتاح الغرفة من سلسلة مفاتيحها. داخل الغرفة كان هناك رائحة عضوية ما أثارت قلقي، ووجدت تلـك الدميـة الذهبية مثبتة في محيط دائرة مـن النقوش والكلمات المنقوشـة بحروف غريبة. خمنت إنها حروف لغة سلافية قديمة، قد تكون اللغة «الكاشوبية». وهناك شمعتان سودويتان مثبتتان عـلى جانبي الدميـة مع آثار لسـائل أحمر. لقد اسـتخدمت دمها الخاص في كتابة عدة كلمات، شـعرت بالشـعيرات تنتصب على طـول ذراعي والقشـعريرة تزحف على طول عمـودي الفقري. «جالينا» لم تعد تذهب للكنيسـة، «جالينا» تمارس عبادة وثنية ما وتتقـرب لإله وثني من أجل الشـباب الدائم. ولكـن يتبقى هنا

لغز فقدانها المستمر لطولها، هنا قررت أن أستعين بنظام مراقبة كنت قد اشتريته ولم أثبته في أنحاء الشقة بعد. كان يتكون من كاميرات دقيقة تعمل لا سلكيًا مذودة بميكروفون لنقل الصوت والصورة إلى صفحة إنترنت خاصة عبر أحد تطبيقات متجر الجوجل، وقمت بتثبيت الكاميرات في غرفتها وانتظرت.

- وهل تتوقع أن تكون الليلة هي الليلة الحاسمة؟

نهض ليقول في خفوتٍ:

- لقد مر ما يقرب من الستة أشهر منذ تثبيتي للكاميرات، ولم تلتقط حتى الآن ما يريب، ولكن أمس تكرر الأمر ولمحت مظاهر التقدم في السن تظهر على ملامحها، واعتكفت في غرفتها وأنا أراهن أن الكاميرات ستنقل لي الحقيقة الآن.

كنا نجلس أمام شاشة الحاسب النقال نتطلع إلى الغرفة التي يحتشد علي رفوف جدرانها أكبر عدد من دمى الماتريوشكا. كانت زوجته تجلس بالفعل وهي تضم كفيها أمام صدرها، وتبتهل بعبارات غامضة غير مفهومة وقد أشعلت الشمعتين. واستمرت في ابتهالاتها لمدة ما يقرب من الربع ساعة قبل أن تخرج لفافة من طيات البلاستيك الشفاف؛ لتعمل على بسطها على أرضية الغرفة بالكامل وتوصل، تستخدم

شرائـط مـن اللاصق لتثبـت طيـات بلاسـتيكية آخرى عـلي الجدران. تبادلنـا النظـر في عدم فهم، قبـل أن نراها تقف وتبدأ في البـكاء ثم تبدأ في مـا جعلني أشـهق وأنا أفـرغ محتويات معدتي أرضًـا. في حين جلس «ناجي» يشـاهد ما يحدث أمامه وقد اشـتعل ما تبقى من سـواد شـعره شـيبًا من هول ما يراه. كانت ترتدي ثيابًا مزركشـة، وتصفف شعرها، وترتدي غطاء شـعر أحمر مثل دمى «الماتروشكا». وكانت تعيش محاطة بمئات من دمى «الماتريوشـكا». والآن كانت تنسـلخ من لحمها حرفيًا، كانت تقشر الطبقة الخارجية من لحمها في مشهدٍ بشع، وكأنها تنتزع من عليها معطفًا من اللحم. كانت تشهق في ألم وطيات اللحم تسقط أرضًا مختلطة بالدم، وبعد دقائق كانت تقف «جالينا» جديدة في كامل رونقها وبهائها بلا شيب ولا تجاعيد ولكنها أقصر قامة بعدة سنتيمترات.

(تمت)

الكاتب في سطور

»» أحمد محمد عبد العال الجبيلي

ـ مهندس معماري
ـ كاتب مصري من مواليد محافظة الفيوم
ـ شارك في العديد من المجموعات القصصية منها:
ـ كوكب العزلة
ـ رؤى حالمة

القضية

دعني أحكِ لك ما حدث باختصارٍ شديدٍ..

كنت قلقًا، الحقيقة أنني دائمًا قلق..

قلـق عـلى الماضي الذى يتـم العبث به بلا توقف، قلق على المسـتقبل الـذى يتم تدميره بانتظام، قلق من الحاضر الذى لا نسـتطيع أن نعيشـه أو حتى نتعايش معه.

أنا دائمًا قلق، أنا القلق الأبدي..

دائـمًا تزحف تحت جلـدي أمواج التوجس فيتحـول لــ جلد إوزة، وشعر يدى دائمًا منتصب.

أول مـرة رأيته فيها كان يعتلي منصت إحـدى الندوات في جامعتنا، كنت طالبًا في تلك الفترة، لم ألتحق بسلك التدريس الجامعي بعد.

لم أعرفـه ولم يعرفـه أحد من الطلبـة فقط، وجدت بعض الأسـاتذه يتهامسـون، كان أسـتاذًا من خارج الجامعة. دَرَسَ بل و دَرّس أيضًا في عدة جامعات أوربية. ألقى محاضرة لم أفهم منها شيئًا بصفة شخصية.

كانت الحـرب قد انتهت لتوها، وكان الجميـع في تلك الفترة مازال يتحدث عن الحرب، المستقبل، ماذا بعد..؟

أن يظـل نصـب عينيـك هدف واحـد لا غـير. شيء مهـم لتحقيقه ولكنك تشعر بالخواء بعد انهائه.. تشعر بأن الدنيا توقفت، تشعر بأنك لا شيء، أنك بلا فائدة.. صمت لبرهة، وهو يكمل مبتسـمًا، في الحقيقة أنا دائمًا أشعر بأني لا شيء وبلا فائدة حتى دون أن أنجز شيء مهم.

كان ذلك الأسـتاذ في الخمسـين من عمره، ارتحل إلى كل بلاد أوربا، وله شـهادات جامعية من عدة دول منها. ولكني عندما سألت عنه بعد ذلـك عرفت أنـه الغمـوض بعينه، كان يتحـدث بحماس مـدع النبوة. بغموض مشـعوز محترف، بثقة من يتلو نصًا مقدسًـا.. ولما أنهى كلمته التي لم أفهم منها شيئًا قال بأسلوبه الغريب:

«أنتم شباب ثائر يبحث عن المستقبل، وأنا عندي الحل. لكنه يحتاج إلى رأي الشـباب ومناقشـات الشـباب. ووقت الندوة لا يسـمح. من يريد أن يشـارك رسـم المسـتقبل فليأتي غدًا في السـاعة السادسة مساءً، وحدد عنوانًا».

لم يلتفت الكثير إلى كلامه؛ لأن المحاضرة نفسها لم تلفت نظرهم من الأصل، ولكني ذهبت بدافع الفضول. كنت أعتقد أني سأكون وحيدًا، لكني وجدت أربعة عشر زميلًا آخرًا ينتظرون ودخلنا معا في السادسـة مساءً خمسة عشر شابًا.

طرقنا الباب وفتحت لنا خادمة عجوز، وأدخلتنا إلى حجرة الاستقبال، لم يتأخر الأستاذ وعندما دخل لم يلق التحية ولم يرحب بنا، إنما جلس في صدر المجلس صامتًا قليلًا ثم قال:

«إذا أنتم كل من حضر، لا يمكنكم التصور مدى أهمية ما سنتحدث عنه، ما نحن مقبولون عليه.. سيكون لكم شرف عظيم وستكون عليكم مسئوليات جسام، فأنتم من ستنقذون البشرية وخارج هذا المجلس لا كلام بينكم، ولا زيارات لي إلا في الأوقات المحددة مسبقًا هذا دستور».

قال أحدهم متزلفًا:

علمنا يا أستاذ.

قال بغباء مستفسرًا:

أعلمكم ماذا..؟

قلت وقد ضقت ذرعًا:

ما أتينا لنتعلمه وننقذ البشرية، الحكمة يا أبنائي، فراشة لا تحط على كف غليظة.. ويجب أن تنزل بكامل إرادتها.. ولكن إن حاولت الإمساك بها لن تستطيع.

قال آخر:

ماذا نفعل لتحط على كفنا ونكون أَكْفَاء لها؟

صـمـت طويلًا ثم قال:

هـذب روحك أولًا، كل منكم يدعو في اتجاه إلى فلسـفتنا وحكمتنا (النورانيـة) التـي سـتتخذ اسـمى «أنـا مؤسسـها: الدكتور نـور الحياة الصمـدي». تدعون في كل مكان، في الجامعة، في الحي، في المواصلات. أما في جلساتنا فالتأمل لعشر جلسات ثم يأتي الكلام.

كيف ندعو لشيءٍ لا نعرف عنه شيئًا؟

يجب أن يكون هناك ما ندعو له.

أدعـو إلى شيءٍ عظيم. وكـما أعدُكم، أعِدوا أعوانكـم وتلاميذكم. أنتـم الآن حواريـو النوارنيـة، كل منكـم يجـب أن يشـكل فصيـل من الأعوان والتلاميذ.

قولت قبل أن أُصاب بالفالج:

كيف علمت يا أستاذنا أننا أَكْفَاء لأن نكون حواريّي النورانية.

ابتسم في غموضٍ:

أنا أعرف كل شيءٍ.

لكن ما هى الخطوط الأولى؟

لم يجـب، كان ينظـر إلى لا شيء فـصمتنـا، وظـللنـا هكذا سـاعات مرت كالدهر، ثم انسحب من بيننا معلنًا انتهاء الجلسة..

لم أكـن أنـوي أن أذهـب في الجلسـة الثانيـة، ولكن ذهبـت لأرى ما

سيحدث، وكانت جلسة واحدة في الشهر. أما الغريب أني عندما ذهبت، وجدت كافة الزملاء الأربعة عشر.

ومع أننا لم نتعارف، ومع أننا لا نعرف بعضنا البعض – مجرد زملاء في نفس الجامعة – بل إن بعضهم لم أكن أعرف اسمه، ولم نحاول أن نتعارف، مجرد سلام عادي ثم صعدنا سويًا وقال أحدهم:

رجاءً إن كان أحدكم يفهم شيئًا يشرح لي، فأنا أشعر أنني الحمار الوحيد.

قلت له في ثقة:

كلنا حمير جر فلا تبتأس.

نظر لي بعضهم شزرًا، وعندما وصلنا للباب فتحت الخادمة بعد القرع كالمعتاد. في حجرة الاستقبال، فالصمت في انتظار الأستاذ، عندما دخل الأستاذ هذه المرة لم يقل حرفًا أبدًا. الصمت لساعات أخرى، ثم انصرافه بدون كلمة، هكذا حتى وصلنا للجلسة العاشرة. كادت العيون تقفذ من محاجرها من الترقب والشوق إلي سر إنقاذ البشرية، ولكننا كنا قد وصلنا إلى سبعة أفراد فقط. فقد تساقط بعضهم على الطريق الطويل خلال عشرة أشهر.

قال أحد الزملاء بعد صمتٍ طويلٍ، وقد بان في عينيه الخبل:

«أستاذي ومعلمي ومنقذي خبِّرنا عن السر».

التفت إلى الأستاذ وقال:

أي سر..؟

قال أحدهم في خجل العذارى:

سر إنقاذ البشرية.

التفت الأستاذ إلى الآخر، وقال في غضبٍ:

إن لم تكونوا علمتم حتى الآن فلا فائدة من تعليمكم.

ثم ترك المجلس وذهب غاضبًا.

كنا نتبع التعليمات ولا نتكلم أو نلتقي معًا، ولكننا ذهبنا بعد شهر دون اتفاق وتقابلنا على مدخل العمارة وصعدنا دون كلمة، وجاء الأستاذ وبعد صمتٍ طويلٍ قال أحدهم:

لقد توصلت للسر يا أستاذ.

التفت الأستاذ إليه، ثم التفت ناحية أخرى وسأل:

وأنت..؟

وأنا كذلك.

أحسست أني أغبى أهل الأرض.

بارك الله فيكم يا أبنائي، اذهبوا وانشروا النور إليه، لقد وصلتم للحكمة، فلن أضيف لكم جديدًا.

ثم ترك المجلس وذهب وهو يُحدّث نفسه من الفرح.

سألت ذلك الزميل على السلم:

ما هو السر..؟

لا أعرف كنت أرغب أن أفك عقدة لسانه لنتناقش.

إلى أن نأتي الشهر القادم وبعضنا يقول يعرف، والبعض الآخر يقول لا يعرف. لنعرف نهاية المهزلة.

والتقينا بعد شهر، وجلسنا ننتظر الأستاذ وعندما جاء بادرته قائلًا:

أنا لم أتوصل لشيءٍ يا أستاذ لم أعرف شيئاً.

التفت ناحيتي، ثم التفت ناحية آخر، وقال:

وأنت..؟

عرفت يا أستاذ.

نظر ناحية آخر، فقال مسرعًا:

وأنا كذلك عرفت.

وكذلك فعل الثالث والرابع، ولكن السادس والسابع قالوا مثلي:

تفكر برهة، ثم قال:

«كلكم أبنائي.. على الذين يعلمون أن يخبروا الذين لا يعلمون.. وإن اختلفتم. فأنا أحكم بينكم. ولا تنسوا أبدًا أن النورانية هى الحل الوحيد، وعليكم عبء نشرها بين الناس».

وتركنا دون أن نبث ببنت شفة كالعادة تركنا إلى الداخل.

وجئنا بعد شهر آخر، وأنا كلي عزم أن أنهي هذه المهزلة، بأن أثبت

أنـه معتوهٍ، مـدعٍ، أو يثبت لي أنه رجل عظيـم.. وقرعنا الباب وفتحت الخادمة.. كانت تلبس الأسود، وكانت أول مرة تتكلم فيها ولم تقل إلا (لقد مات سيدي).

ونزلنا وبدأنا الكلام، وكنت أنا البادئ:

كان معتوها رحمة الله عليه.

قال آخر في حدةٍ وهو يجفف الدموع من عينيه:

بل أنت المعتوه.. لقد كان رجلًا صالحًا يريد إنقاذ البشرية.

قال ثالث:

بل كان نبيًا، ولم يستمع إليه أحد، نحن تلامذته وعلينا عبء كبير.

قال رابع في سخرية:

نبى..! إنه نصاب لم يقل طوال عام إلا ثلاثة جملٍ ولم تكن مفيدة.

قال الخامس:

كلكم لم يفهم لقد ألقى إلينا علاج البشرية، إنه التأمل والبعد عن شهوات.

الجسد والتقرب من الروح والسمو بها.

قال السادس:

بل على العكس إنه يقول أرضِ جسدك ترضَ عنك روحك، أغرق نفسك في إرضاء جسدك تسعد روحك، وترضى نفسك وبالتالي تسعد البشرية جميعها.

قال الأخير:

إنه زنديق، لا يعرف شيئًا عن الدين، أضاع وقتنا في لا شيءٍ.

قلت أنا في صبرٍ:

يا إخواني لنعتبر كأن شيئًا لم يحدث، ولنستكمل حياتنا ولا نغير من أمرنا شيئًا.

ولكني وجدتهم يتفرقون من حولي، ووجدت كل منهم في طريقه.. الغريب أنه لم يكن هناك ستة طرق، ولكني بالفعل لم أجد اثنين في طريقٍ واحدٍ.

(تمت)

الكاتبة في سطور

»» هبة حامد محمود

ـ بكالوريوس تربية شعبة طفولة جامعة حلوان
ـ ليسانس آداب ترجمة لغة إنجليزية جامعة القاهرة
ـ دبلوم عام تربوي كلية التربية جامعة المنوفية ٢٠١٧
ـ شاركت في العديد من الكتب الأدبية، منها :
ـ ديوان «حيثما كان قلبي» الصادر عن دار كاريزما للنشر والتوزيع.
ـ كتاب «قطوف وحروف» الصادر عن دار لوتس للنشر.
ـ كتاب «غيمات حبر وحب» الصادر عن دار لوتس للنشر.
ـ كتاب «همسات ولمسات» الصادر عن دار لوتس للنشر.
ـ كتاب «حلم» الصادر عن جريدة الموجز العربي.

ورقة حلوى

بينما كانت ترتب أغراضها، إذ بورقة حلوى فارغة تسقط على الأرض، فالتقطتها.. وتحسست ملمسها.. وقربتها من أنفها.. ما زالت رائحتها عالقة بها.. وإذ بارتجافة تسري في أوصالها..

لم تدري كم من الوقت مر على الفراق؟ عام.. عامان.. ربما أكثر.. ربما لم تعد تهتم بحساب الأيام..

إذن لماذا تحتفظ بتلك الورقة؟ هل هو الحنين لذكرى مرت.. أم برهان غباء لمشاعر هدرت قيمتها أمام قلب لا يستحق؟!..

«لقد عاندت من حولي وتحديت العالم، وفرضتك على واقعي. وسعيت لإزالة أي فوارق بيننا، ولكن يبدو أني أخطأت. وأن عقد كرامتي قد انفرطت خرزاته واحدة تلو الأخرى، وأن سلم التنازلات قد صعدته درجة درجة، حتى وصلت لقمة الهاوية، وطلبت مني بكل سهولة أن أقفز عالية».

تنهدت بحرقة وهي تلوم نفسها «أين كان عقلي حين أحببتك أو توهمت ذاك؟ ضربت بكل الأعراف عرض الحائط، وألقيت بكل

القواعد في قاع البحر، واعتقدت أن شرفة قلبي قد أشرقت حينما أطلت على مدينة حبك، ولكني كنت غارقة في الوهم».

ألقت بجسدها النحيف على الأريكة، ويبدو أن الذكريات أثارت دمعها.

«سحرتني وجعلتني عمياء العينين، صماء الأذنين، لا أسمع ولا أرى إلا سواك. الكل عبيد وأنت السيد المطاع. خشيت أن أفقدك، وأفقد ما تبقى من كرامتي. فسنوات خطبتنا قد طالت، وألسنة الناس بدأت تتطاول عليَّ، وفوبيا العنوسة تكاد تصيبني، ولكن لا بأس، سوف تتبدد تلك المخاوف بمجرد أن يجمعنا بيت واحد».

ولكن سكرة الحب قد انتهت حينما رأيتك تنهش في أشلائي، وتغرس بسهام أنانيتك في أوصالي، وتبيح جلدي بسياط رجولتك المزيفة. لقد استهلكت كل طاقتي وأفرغت كل مشاعري الطيبة. وجعلت بطارية أحلامي معك تحت الصفر. فأي رجولة هذه التي تبيح لك أن أتخلى عن أحلامي وتستغل كل مواردي لك وحدك؟! أي نخوة هذه التي تجعلك تهددني بالانفصال لأني تجاوزت الثلاثين من عمري؟! ولكن لا.. وصرخت بأعلى صوتها «تبًا لك ولألسنة الناس، فخير لي أن أغرق في بحر العنوسة، ولا أن أستطعم ذل الحب معك».

وقفت منتبهة ومسحت دموعها، وعدلت من هيئتها. وألقت ورقة الحلوى في سلة المهملات. فلم تعد تلك الذكرى تحيي لها ماضٍ ولا تروي لها حاضرًا ولا تجدى معها نفعًا في المستقبل..

تقاليد بالية

فتح خزانته، ووقف متحيرًا ماذا يرتدي اليوم للذهاب إلى عمله؟ ولمح في ركن خزانته زجاجة عطر شبه فارغة. وما أن لمسها واشتم بقايا عطرها حتى دبت فيه قشعريرة أعادته للحياة، واسترجع شريطًا من الذكريات مرت عليها سنوات.

فقد تلاقت يومًا أعينهما في الزحام. وصارت هي هدية السماء له في تلك الأيام. لا يدري كيف تعلق قلبه بطرف حبها؟ ولا كيف هامت روحه في فلك مشاعرها؟ ولكنه تيقن أنها حبه الأكيد الذي نضجت معه كل أحاسيسه.

فقد حاول مرارًا وتكرارًا تكذيب نبضات قلبه، بالبعاد تارة والعزلة عن أشكال الحياة تارة أخرى. ولكنه في كل مرة كان يرجع إليها بكل أشواق اللهفة وحنين الاحتياج.

«سأعلن الحرب لاقتحام حصونك، وسأنشر جيوشي في أرجاء ربوعك. ووحدي أنا من سيضرب بخيامه على أرضك، ويثبت علم النصر في أعالي هامتك».

هكـذا صارحها ذات يوم.. فلن أبالي بتقاليـد بالية وعادات عقيمة، لن أخسر حبي بسـبب بضعة معتقدات عفـا عليها الزمن، وفاح عفن رائحتها وسدت أنوف العاقلين. فكم من قلوب تمزقت، وأرواح تبعثرت، ومشاعر وأدت جراء خزعبلات تناقلتها الأجيال وحكمت علينا بالموت البطئ؟

ولكنها أبت أن تصغي لنداءات الحب، ورفضت أن تضعنا تحت رحمة فكي الرحى، وأن نكون سويًا مثار سخرية أصحاب العقول المتحجرة.

فأنا الشاب الثلاثيني ذو الأيام الربيعية، وهي سيدة أربعينية تساقطت أوراق شـبابها في حياة سـابقة فاشـلة. حاولت أن أبث فيها الشـجاعة؛ لنتحدى العالم بأكمله، ونحقق نصرًا لحبنا، ولا نلتفت لتخاريف الناس التي ستلاحق الكل شئنا أم أبينا..

وكانت تلك ليلتنا الأخيرة التي أهدتني فيها زجاجة العطر، ولمعة عينيها تعزينـي على حب تعثرت به قلوبنا صدفـة. وكان حضن كفيها هي الحرارة الباقية في قلبي حتى الآن، فقد كانت أخر وسيلة اتصال لنا في هذا العالم..

ورحلت حبيبتي..

لملمت بقايا وجدانها من قيعان روحي، وأغلقت نوافذ قلبها عني.. وأسدلت سـتائر الحزن على قصة عشـق لم تكتمل.. وها أنا بفضل حبها خارج البلاد أقطف ثمار نجاح عملي. ولكني أردم بنيان حبي الوحيد بسـبب ألسنة المجتمع الخرساء، فأنا لا امتلك سوى بقايا شذاك العالقة بكفي وكلمات هامسة في ليلة باردة.

كلما اجتاحني الحنين استنشق كفّي واسترجع كلماتك، لعل روحي تلتمس بعضًا من الهدوء، ولن تهدأ أبدًا..

الكاتبة في سطور

»» مروج سمير علي

ـ حاصلة على بكالوريوس علوم قسم بيولوجي جامعة عين شمس
ـ شاركت في العديد من الكتب الأدبية، منها:
ـ ديوان «حيثما كان قلبي» الصادر عن دار كاريزما للنشر والتوزيع.
ـ كتاب «قطوف وحروف» الصادر عن دار لوتس للنشر.
ـ كتاب «غيمات حبر وحب» الصادر عن دار لوتس للنشر.
ـ كتاب «همسات ولمسات» الصادر عن دار لوتس للنشر.
ـ كتاب «حلم» الصادر عن جريدة الموجز العربي.

اللوحة..

وقفت أمام إحدى اللوحات تتأملها في ملل. فقد أحضرتها صديقتها (سهام) معها المعرض من باب التغيير، قالت لها: أخرجي يا (ريم) من قوقعة اكتئابك وتعالي معي؛ حتى لا أكون وحيدة.

عندي معرض لابن خالتي (خالد) ويجب أن أحضره. تعلم هى كم تحب (سهام) المعارض الفنيه التشكيلية، فوافقت وحضرت معها على مضض.

نظرت بتمعن في اللوحة، كانت ملفتة للعين في مجملها، أعجبتها رسومات الطبيعة وما تضمه من نباتات وزهور. اللوحة رسم تجريدي للنباتات بخامة الباستيل، صاخبة ومثيرة في ألوانها، خليط بين الألوان النارية، أكثرها دفئًا اللون البرتقالي.

تأملتها وسرحت فيها وفي صاحبها، وتساءلت كيف كان يرسمها؟ وفيما كان يفكر؟.

تخيلته وهو يرتشف من فنجان قهوته، ثم يمسك الفرشاة ليصنع هذا الجمال. تخيلته وهو منهمك في رسم الخطوط والتعامل مع الزيت والاكريليك بدقة عالية. سرحت كثيرًا في ألوانها وهي تحدث نفسها: كيف لأحدهم أن يمتلك القدرة على صنع الشيء من العدم؟. هي لم تكن لوحة من البداية؟ كانت الأدوات في يدي صاحبها، وبفكره و إبداعه استخدمها ونسق بينها فخرجت في هذه الصورة. قاطع هدوءها شابين، جاءا بجوارها لمشاهدة اللوحة ودار بينهما هذا الحوار:

الأول: جميلة يا محمد أليس كذلك؟

الثاني: لا أراها هكذا، تنسيق حجم الزهور لا يعجبني، أراها عادية.

الأول: ولكن ألوانها خلابة، ألم ترى كيف صنع منها عاصفة هوجاء تحمل سيلًا من الألوان النارية؟

الثاني: عادية، أراها يا (سمير) عادية.

شردت في الحوار بينهما، كل منهم ينظر للشيء نفسه، ولكن كل عين تراه باختلاف عن الأخرى. وقد يحتمل رأي كل منهما الصواب، لما لا تكون هكذا كل الأمور؟ أراها بطريقة وأسلوب، وغيري يختلف عني، أليس كلام كل منهما صوابًا؟.

الأول يراها جميلة في ألوانها خلابة، والثاني لا يعجبه تنسيق وحجم الزهور، هو لم يلتفت لجمال الألوان. شاهد فقط النقص فيها والعيوب. ورغم ذلك لم يخطئ؛ لأنه يبحث عن الجمال كما تراه عيناه.

تساءلت: ماذا لو أسقطت هذا المنظور على سفر (أيمن) للعمل في الخارج؟ أليست أسبابه صوابًا؟ هو يريد لنا العيش الكريم، وعقد العمل ذاك فتح له أبواب في ظل ظروف صعبة، وحالة من الغلاء تمر بها البلاد. أما هي فقد رأت في ابتعاده عنها شقاء، حتى بعد مرور٦ أشهرعلى سفره. لم تتكيف بعد على فكرة عدم وجوده بجوارها في أحداثها اليومية الصغيرة. أن تفتح عيناها كل صباح فلا تراه، أن تنقصها أشياء لم يكن يحضرها غيره وأصبح عليها التعامل مع ذلك الواقع وإحضارها بنفسها، حتى في أوقات الشجار والخلاف كان موجودًا، حاضرًا. أما الآن فما عادت تشعر به كما كان، رغم المكالمات الكثيرة بينهما إلا أنها لا تشعر به كما كان معها.

ضريبة الغربة والسفر تدفعها من مشاعرها واحساسها وقلبها.. لكن.. لكن منطقه هو أيضًا حكيم.

فالأسعار في ازدياد، والغلاء ينهش في الناس وهو يخشى عليهما من مرارة الأيام خاصة أنه لا شيء مضمون. لمعت عيناها للحظة وهي تربط

كل ما سبق في ذهنها، هي حقًا صواب وهو أيضًا صواب. واختلاف تنسيق الزهور لا يفسد جمال الألوان.

هزت رأسها وابتسمت وكأنها موافقة على هذا الاستنتاج، لم تعد غاضبة منه. هو نظر للأمور بمنظور وهي رأتها بمنظور آخر، وكلاهما كلامه صواب.

ابتسمت والتفتت تبحث عن (سهام) لتخبرها بهذا الاستنتاج الذي زرع في قلبها وروحها الارتياح، خطت بعيدة لخطوات عن اللوحة ثم وقفت فجأة، والتفتت لها وابتسمت وقالت بصوت عالٍ: شكرًا لك يا (وشوشة الزهور) ومضت مبتعدة تبحث عن صديقتها، أما اللوحة (وشوشة الزهور) فظلت مكانها مشرقة وملفتة لكل العيون.

الدمار الذيذ

عـلى كرسي المقهى جلـس بجوارها يحتسي القهـوة. ويتأمل ملامحها الرقيقة بسعادة

كـم تفيض منها رائحة الطيبة والهدوء، رسـومها الناعمة تحمله على ضفاف الغيوم، في تأمُّل واحد طار معها للسماء.

هز رأسه في عنف وكأنما أراد أن يستعيد وعيه، واختطف نظرة ثانية لوجهها المبتسم له في صمت، وقال لها في ثباتٍ: ألن تبتسمين؟

نظرت إليه بنظرة ساحرة يعرفها جيدًا وردت: بدون أسباب؟

قال لها بسرعة واستنكار:

بدون أسباب. يا دمار

قالت في دهشة:

أنا دمار؟

ابتسم لها بعينيه وقال بيقين:

نعم أنتِ من المدمرين، علامَ تتعجبين؟

استمر حاجباها مرتفعين، وعيناها في ذهول، وفمها عفى إلا أن يردد كلمة واحدة خرجت بانفعال وتصميم، أنا؟

قال لها: نعم أنت كالزلزال أو البركان، أتعلمين؟ أراكِ أقرب للإعصار بما تحدثيه من دمار.

كان سيسكت، غير أن ذهولها المستمر وصمتها أجبراه على الاستمرار قائلًا:

أجل، إذا مررتِ بقلبٍ يومًا فأنتِ تتركينه بعدك خرابًا. لا يريد الحب ولا يصلح له مجددًا، أنتِ وفقط. ولا حب بعدك، أليست هذه من أفعال الدمار كما الإعصار؟

يقتلع البيوت والأشجار، ولا تعود الأرض بعد مروره كما كانت قبله؟

حبيبتي، كوني على يقين، أنتِ من المدمرين لهذا الكوكب ولابد للمنتصرين في معركة إنقاذ الأرض أن يدركوا خطركِ على مساعيهم.

ثم صمت لثانيتين وردد هادئًا وفي عينيه نظرة حنان:

أو أن يرضخوا مثلي للدمار في هدوء واستسلام.

الكاتبة في سطور

»» الزهراء رمضان حسن

ـ محافظة أسوان ـ إدفو
ـ بكالوريوس علوم وتربية
ـ شاركت في عدة مجموعات قصصية

بأي ذنبٍ أُخذ

الوطـن لا حاجه لـه بأمثالي. المقهـي هو مكاني المفضـل. أما البطالة فهي مهنتي، ومحنتي تشتد كلما ازداد عمري يومًا.

كنت جالسًـا كعادتي في المقهي وأحتسي كوبًا من القهوة. لمحت رجلًا مهندمًـا يرتدي حلة سـوداء أنيقة بـدون ربطة عنق. كان يحـدق بي، كأنه يعرفني. ولكنه ليس متأكدًا أنني الشخص الذي يعرفه. اقترب مني وقال:

خالد الشناوي؟.. حدقت فيه لبرهة ثم بحماسٍ قلت له:

نادر عبدالجليل.. ثم تعانقنا عناقًا حارًا.

نادر وأنا صديقا الدراسة داخل قسم واحد، وثكن جامعي واحد.

ـ يا راجل وحشتني، ووحشتني أيام الكلية.

ـ وأنت والله يا نادر واحشني، ووحشتني أيام الشقاوة.

ـ استنيى أجيب كرسي.. اتنين شاي يا عم محمد.

ـ إيه يا ابني اختفيت فجأة كدا؟

ـ كنت في أمريكا، الحمدلله عملت بزنس واتجوزت كمان.

ـ بجد؟ ما شاء الله، وخلفت ولا لسه؟

ـ ضحك نادر، ثم أردف قائلًا:

ـ لا مبتخلفش.

ـ أنت عاوز كدا عشان تعيش حياتك، مش كدا؟ من غير عيال ووجع دماغ.

ـ ضحك نادر مرة أخرى وقال:

ـ لا أنت مش فاهم، هي مينفعش تخلف عشان كبيرة في السن.

ـ سنها كام يعني..؟

ـ مش كتير ٥٩ سنة بس.

ـ يخربيتك أنت اتجننت؟ ولا أنت مستنيها تموت وتورثها..؟

ـ سيبك من دا كله.. أنت عامل إيه وبتشتغل إيه؟

ـ أنا مش لاقي شغل مناسب، ومش عارف أعمل إيه. أنا جوزت صحابي كلهم وأنا لسه قاعد أهو، مش عارف حظي عامل كدا ليه؟!

ضحك نادر، يااعم طول عمرك نحس من أيام الكلية، بس كنت شقي وبتاع بنات.

ـ أيام وراحت لحالها يا راجل، حتى البنت اللي حبيتها اتجوزت ومعاها عيال.

ـ طب بقولك: إيه رأيك في اللي يوديك أمريكا؟

ـ أمريكا؟

ـ أيوه فكر كوويس. عمومًا لو فكرت تروح أنا هجهزلك الأوراق المطلوبة، وما تخفش التكاليف كلها عليّ، أنت زي أخويا وإحنا عشرة وبينا عيش وملح، أنت ما عليك هناك غير إنك تسعي. والشغل هناك كتير أوي، علي قفا من يشيل.

ـ بس..

ـ آدي أرقامي لو حبيت تسافر كلمني..

تناولت الكارت ثم شردت في التفكير. عن احتجاج أمي، وسخط أبي، لكن لا بأس سوف أقنعهم.

ـ يلا بقي سلام يا عم خالد وفكر كويس وابقي كلمني.

ـ مع السلامة.

تزوج من عجوزة شمطاء. يا له من مجنون!

ولكن الأمر حقًا يستدعي الجنون، فهيئته وسيارته الفارهة تقول أنه أصبح مليارديرًا. وصلت إلى المنزل شاردًا. تناولت لقيمات على الغداء ولم أتحدث مع أحد. كنت أفكر في أمر الهجرة، أمر صعب. ولكن لما لا.. فهنا لا أجد عملًا مناسبًا، فسأبحث عنه بالخارج. فكرت في الأمر طوال الليل. شيء ما يقول لي: هاجر، فالهجرة حقك، والحق أحق أن تتبعه.

رحت أتأمل الكارت الذي أعطاه لي نادر، ثم تناولت الهاتف المحمول وسجلت أرقامه وعزمت أنني سوف أحادثه صباح غد.

وفعلًا حادثته، واقنعت أبي، وأمي أيضًا بالأمر. الأمر صعب جدًا

عـلى أمـي، خافت أن تأخذني الغربة مثل أخيهـا الذي ذهب ولم يعد، لا يعرفون عن أمره شيئًا. وخلال إسبوعين كان كل شيء جاهز.

أخذت الأوراق والجواز، وجهزت حقيبة سفري، وودعت أمي وأبي وإخوتي.

أخـذت أحدق بالشـوراع لا أعرف أحدًا. كنـت أجيد الإنجليزية. فأوقفت سـيارة وشرحت للسـائق أن يأخذني إلي فندق سعره مناسب. ففهم وأوصلني إلى ما طلبته، قضيت ليلتي الأولى.

وفي الصبـاح عزمت عـلى أن أبحث عن عمـل، ولكن رجعت آخر النهـار بخفي حنـين. الأمر ليس سـهلًا كما كنت اعتقـد، فالكل يهز لي رأسـه ويقولون لا نحتاج، وهكذا طيلة عشرة أيام والمال الذي بحوزتي أوشك على النفاذ. كنت أجلس في كافتريا الفندق، أفكر في أمر العمل، مـاذا لـو نفذت نقودي كلها ولم أجد عملًا؟ سـأنام في الشـارع، ماذا لو قرص معدتي الجوع؟ أسرق؟!

آاااه كم أن الغربة صعبة.

تجلـس عـلى المنضدة قبالتي عجـوز، أظن أنها في العقـد الخامس من عمرهـا، نظراتها غريبة جدًا، تغمـز لي، يا لها من عجوز مجنونة. تقدمت ثم جلست قبالتي، فأردفت قائلة: ألا تريد متعة ومالًا؟ وتتكلم بغنج.

قلت لها: ماذا تقصدين

قالت: أعطني إحسـاس، وأعطيك مالًا. كنت قد فهمت ما تقصد، ولكنني كذبت أذني، وهذا ما جعلني أقول لها: عفوًا لم أفهم بعد.

ثم قالت: تعال معي.

قلت لها: لن أتحرك من مكاني.

قالت لي: كما تحب.

تركتني ومشت، تقدمت خطوات مبتعدة ثم التفتت، وقالت لي فكر في الأمر.

لم أرد على كلامها، لم أقل سوى أنها مجنونة.

ولكن لماذا أنا؟!

أظن أنها تراني كثيرًا هنا فأعجبت بي. أو انتبهت إلى أنني دائمًا ما أبحث عن عمل،

لا أعرف.

ذهبت إلى الغرفة، لم أجد بحوزتي سوي ٥ دولارات.

يا إلهي سوف أطرد من الفندق ولم أجد عملًا بعد.

أخذت تدور فكرة العجوز في داخل عقلي، تارة أهز رأسي كأني أنفض هذه الأفكار، وتارة أخرى أفكر في أنني أحتاج المال ولا أجد عملًا.

في اليوم التالي تعمدت أن أجلس في نفس المكان. ما إن رأيتها، تقدمت نحوها بضع خطوات، ثم ترددت في بداية الأمر. لكنني أكملت سيري، جلست قبالتها، قلت لها موافق، انفرجت أساريرها. لم أكن أعلم أنها محرومة من ذلك الإحساس لهذه الدرجة -الأمر مثير للشفقة حقًا- ضربت لها موعدًا على أن نلتقي مساءً في غرفتها بالفندق.

كنت ألتفت خلفي بين الحين والآخر، وكأني لص سرق للتو، وخائف من أن يكتشف أمره. طرقت على الباب طرقات خفيفة، ففتح الباب على الفور، سحبتني للداخل.

حدث ما تريد وتركتها عارية الجسد علي السرير، بصقت في وجهها، ارتديت ملابسي بسرعة وخرجت علي الفور. وذلك بعد أن أخذت المظروف (المبلغ) الذي اتفقنا عليه. ما إن دلفت باب غرفتي، أسرعت فورًا إلي الحمام وأخذت أتقيأ، ثم خرجت أقول ما الذي فعلته. أخرجت المظروف من بنطالي ورميته أرضًا. لم أنم ليلتها، دخنت علبتين سجائر، كنت كلما تذكرت ما حدث أبصق.

في الصباح عزمت علي أن أترك الفندق. ولن أكرر ما حدث بالأمس، لا أحتاج لفعل هذا كي أحصل على المال. وأنا أرتب حقيبتي وعزمت علي أن أذهب، تذكرت قصة أبي التي رواها لي عندما أخبرته بأني سأسافر؛ لأعمل في أمريكا. «أحد أصدقائه القدامى، الذي سافر إلي فرنسا دون أوراق رسمية، وعندما قبضت عليه الشرطة لعرضه على السفارة وترحيله لبلده، فر هاربًا، ولم يكن بحوزته أي شيء، كان أعزلًا حتى من هويته. فتشرد والجوع قرص معدته إلى أن جعله يسرق، وانضم إلى طائفة المشردين. إلى أن انتهى به المطاف إلى الانضمام إلى جماعة إرهابية ثم السجن».

لم تؤثر فيّ القصة حينها وطمأنت والدي بأن أوراقي رسمية، وسأجد وظيفة مناسبة. أرعبتني القصة وجعلتني أتراجع، بل أتراجع وأتراجع.

لعب الشيطان في عقلي وأخذت أفكر في الأمر. ماذا سيحدث لو متعت بعضهن وأخذت منهن مالًا؟ فهن يحتجن الإحساس، سأعتبرهن مجرد سيدات أعمال، أو أنهن صفقة رابحة. وفعلًا أخذت أمارس هذا الفعل لمدة عام كامل وأكثر. تارة مع عجائز وتارة أخرى مع فتيات. كنت قد تعرفت على الكثيرات من كبار السن. وكنت أصاحبهن حتى أن إحداهن اشترت لي سيارة، وأخرى اشترت لي بيتًا مؤثثًا بأثاث عصري وفاخر. ولذلك لم أترك الفندق، فإن لي زبائن فيه، كنت غير متأثر بأي إحساس بقذارة ما أفعل. الأمر بالنسبة لي مجرد صفقات تجارية رابحة. هذه الحياة تعودتها واستولت عليّ. ما جمعته من أموال جعلني لا أشعر بالذنب.

إلي أن قابلت إيلا، إيلا فتاة صهباء ذات شعر مسترسل، عينيها زرقاوتين وشفتين ورديتين نحيفتين. أحببتها، أردتها زوجة، كان قرارًا صعبًا أن أقطع علاقتي بكل ما يربطني بهذا العمل. لكن فعلًا حدث، وأختفيت تمامًا، وبعت البيت وقررت العيش في ولاية بوسطن. وأن أبحث هناك على عملٍ جديدٍ بعيدًا عن القذارة والقرف، وأتزوج من إيلا ونعيش حياة مستقرة، وأنجب أطفالًا، غير أني سأحصل على جنسية.

في يوم زفافنا وبعد إنهاء مراسم الحفل، كنت غير قادر على ممارسة الحب معها. تبللت عرقًا، أحسست بإعياء شديد، كدت أجن، لا أدري ما حل بي؟

ذهبت في اليوم الثاني إلى الصيدلية اشتريت منشطًا. ولكن لا فائدة، كدت استشيط غضبًا، واليوم الذي يليه نفس ما يحدث في اليوم السابق. في اليوم

الرابع ذهبت إلى الطبيب، طلب مني بعض التحاليل والفحوصات اللازمة.

بعد أن فحص الطبيب نتائج التحاليل قال:

إن جهاز المناعة تدمر بشكلٍ كبيرٍ للغاية، بسبب الإيدز. وأنت عرضة للإصابة بورم سرطاني، حسبما تقول نتائج التحاليل. بعدما سمعت ما قاله أصبت بالصمم، لم أسمع أي كلام آخر، كنت أرى شفتيه تتحركان فقط، تجمدت كل حواسي، أحسست بزلزال في داخل صدري، رحت في صمت طويل.

وصلت إلى البيت، سألتني إيلا ما بي. قلت لها نصف الحقيقة.

ـ أنا مصاب بورم سرطانيٍّ، سأسافر مصر ثلاثة أيام وأعود، قلت لها ذلك. وأنا أصلًا قررت أن أذهب ولن أعود مرة أخرى. رغم رفضها وإلحاحها بأن تأتي معي إلا أنني أقنعتها بأن تنتظرني في بوسطن ولن أتأخر. وازداد اقتناعها بالأمر عندما قلت لها أنني حددت ميعادًا لعملية جراحية.

وها أنا عائد لوطني، فالعائدون دائمًا ما يحملون أفخر أنواع الهدايا للعائلة والأقارب والأصدقاء، وأنا أحمل هوية أمريكية وأمراض تفشت في جسدي.

وها أنا لازلت أتعالج في أقذر المستشفيات، لا أدري من ألوم، وطني الذي أجبرني علي الغربة.. أم نفسي التي أغوتني..

(تمت)

الكاتبة في سطور

»» نوران محمد صبرة

ـ من مواليد محافظة القاهرة
ـ طالبة بقسم الزخرفة ـ كلية فنون تطبيقية
ـ حاصلة على شهادات في القصص القصيرة والمقالات الصحفية

«مذكرات مكتئب»

أنا «أحمد»

وأخيرًا.. قررتُ أن أكتُب ما بداخلي. رغم أن تلك الحياة حتى الآن لم تنتشلني من تلك الحفرة التي تدعى الحُزن.

أكتب وأنا حياتي مازالت تزداد حُزنًا وكآبة. وكأنها الحياة لا تجد غيري لتُحزنه، وكأنما أنا فقط من يستحق حُزن هذا العالم.

اليوم هو أول يوم في العام الجديد. حسنًا الكُل سعيد وفرِح، وأنا هنا جالسٌ في تلك الغرفة التي لا أعتبرها سوى سجنًا لي. أجلس على الأرض في إحدى زوايا الغرفة، أحتضن مذكرتي وأنا أكتُب فيها، وكأنني أخاف أن يأخذها أحدٌ مني مثلما أُخِذ مني الكثير.

مرّت أعوام على وجودي في هذه الغرفة. بل بالأخص في هذا المشفى. عفوًا ما تسمّونه مشفى المجانين.

سـأعترف اليـوم باعتراف لم أرغب بقوله إطلاقًـا. منذ مجيئي إلى هنا وأنا لم أتناول دواءً قط.

كنـتُ دائمًا ما أخدع الممرضـات بأنّني تناولتها، وما أنا إلا أُخبئها في علبة صغيرة تحت ذلك السرير. لم أرغب يومًا بأن أتعافى، فضلّت كثيرًا أن أبقى هنا في تلك الغرفة بعيدًا عن كل شيء.

أنـا مريضٌ بالاكتئاب. تلك الغيمة السـوداء التـي ترافقني دائمًا مهما حاولـت الهروب إلى الغيـوم النقية. أذكُر أن عند دخولي للمشـفى كانت حالتي صعبة للغاية، أدى الاكتئاب بي إلى العصبية وما هو قد يؤذي العالم المحيط بي. حتى أنهم قاموا بحرماني من الخروج إلى حديقة المشفى ورفضو حتى الزيارات. ولكن حتى ذلك لم يهمّني، لأنه حتى لم يكُن هناك زوّار.

قبـل دخولي للمشـفى كنت أمُر بمشـاكل كثيرة في المنـزل والعمل، حتـى أنني وجدت نفسي قد وصلت لشـقيقي الـذي يدعى الاكتئاب. كنـت أقـول ذلك لمـن حولي، ولكنهـم كثيرًا مـا كانو يسـخرون. يظن الأغلـب بل الجميـع أن لا شيء يُدعـى مرض الآكتئـاب. وأن ما ذلك إلا هواجس. ولكن مع مرور الوقت تعسّرت حالتي كثيرًا. اسـتاء مني أهلي وأصدقائي. اسـتاء منـي الجميع، حتى وجدت نفـسي آتٍ إلى هنا بقدمي؛ راغبًا بالشفاء من ذلك المرض.

منـذ طفولتي وأنا بالفعل معزول في ذلك البيت الذي لطالما سـعيتُ كثيرًا للهروب منه. لم أتقبّله إطلاقًا. أمي التي لا تهتم بشيء سوى المناظر. تسـعى دائمًا إلى إظهار حياتنا على أنها حياة أسرية مترابطة وما إلى ذلك. ويـكاد بيتنا من الأسـاس أن ينهار من عدم متانة تلـك الروابط. كانت تمنعني أمي من الخروج من البيت، واللعب مع أصدقائي. تجعلني دائمًا مـع تلك ما تدعـى «مربية الأطفال». حتى أنها لا تأتي وتطمئن علي وما إلى ذلـك. لكنها فقط كانت تدّعي دائمًا أمام صديقاتها أنها هي من تقوم بمراعاتي وتربيتي والاهتمام بي. يا له من هُراء!.

كـبرتُ قليـلًا حتـى وجـب عـلي الذهـاب إلى المدرسـة.. حسـنًا لم أُمانـع أبـدًا أن يصطحبني والدي إلى المدرسـة.. ولكن مـع مرور الأيام والسنوات كدت أختنق من تلك العادة التي تقيّدني دائمًا.

أبي كان مـن هـؤلاء الأشـخاص الذيـن تربّـوا عـلى تلـك العادات والتقاليـد العظيمة. كان شـديدًا جـدًا. ملتزمًا بكل تلـك العادات التي سـمّيتها بنفسي عاهات. كثيرًا ما كان يمنعني من أشـياء بسـيطة بحجّة العـادات والتقاليـد. أو كعادة كل أب يسرُد قصـة حياته، وأنه كان من البيـت إلى المدرسـة والعكـس. وأنـه كان ينام مبكـرًا ويسـتيقظ مبكرًا ويـدرُس عـلى أضواء الشـموع. وذلك السـيناريو المتكرر الـذي لطالما يعيد تكراره عليّ.

كان التحكـم بي منذ صغري من قبل والداي قد سَـلَب مني حرّيتي وشـخصيتي. نعـم كنـتُ ذلـك الولـد الضعيـف أمـام والـده عديم الشـخصية. وكنتُ أيضًا ذلك الفتى حبيب والدته. لم آخُذ قرارًا واحدًا في حياتي حتى انهيت المرحلة المدرسية، و ذهبت إلى الجامعة. ذلك العالم المختلف تمامًا عن المدرسة. دخولي للجامعة كان مسبقًا بتخطيط عائلي كبـير. نعم بالطبع أبي يريدني أنأكـون طبيبًا، وذلك التفكير الذي يدّعي أن جامعات القمة هي الأفضل على الإطلاق.

تخرّجتُ من الجامعة، وتقدّمتُ على طلب وظيفة، وبالطبع تم قبولي لوسـائط أمي ومعارفهـا. بالطبع تعرّفـت على العاملين في المستشـفى، وكان يحتم علي التعامل معهم. كنت سعيدًا لأول مرة..

وقعـت في حبّ ممرضـة. وأردت أن اتخذ خطـوة في ذلك. لذا قمتُ بمواجهة والداي. أمي التي رفضت بشـكل تام وأنها ليسـت من عائلة كبـيرة، وأبي الـذي عاتبنـي على تركي لفتيـات العائلة واختيـاري لفتاة مـن الشـارع. كل ذلك كان صعبًا بالنسـبة لي، ولكن أنـا اتخذت القرار وحاولت كثـيرًا حتى وافقوا. بدأنا في ذلك القرار. أتممنا الزواج بعدها بثلاثِ شـهور. برغم موافقتهم وشعوري بأن الأمور انحلت، وجدت أيضًا مشاكل أكبر.

حاولـت زوجتـي أن تخبـئ عني أي شيء يحـدث من قِبـل والداي. ولكننـي وجدتها في يـوم منهارة أمامي وتبكي بشـكلٍ هسـتيري، حتى شعرت وكأنما قلبي ينزفُ دمًا. قالت لي ما حدث لها منذ أول يوم جاءت فيـه إلى المنزل. إهانات أمي الكثيرة على مسـتواها وعائلتها، بالرغم أنها كانت ليسـت بفقيرة بل كانت من الطبقة المتوسطة، وأبي الذي يعاملها بقسـوة، وكأنما الفتيات فقط خلقن للجلوس بالبيت، والقيام بالأعمال المنزلية وتربية الأبناء. لم أستوعب ما حدث، فقط عانقتها حتى تهدأ..

بعد ذلك قمت بمواجهة والداي. كانت المواجهة كالحرب بالفعل. حتى أنهم تعمّدوا استفزازي بذلك الكلام الذي لا معنى له، حتى قال لي أبي: «تركـت فتيات العائلة وتزوجـت هذه؟ ولكن لما لم تنجب حتى الآن؟ أم إنهـا فعـلا من فتيات الشـارع؟» كانت تلـك الجملة تغرس في قلبي أشواكًا. حتى أنني لم أستطع الرد عليه لإنه أبي.

بعـد فترة جاء ذلك الخبر. حسـنًا إنها لا تنجـب. لم أعلم كيف أخبرِ والداي بذلك؟ ولكن كان يجب أن أفعل ذلك. أخبرتهم بالفعل. كانت ردة أفعالهم كالعادة.

مر الوقت حتى تعرضتُ للكثيرمن الضغط منهم، أن أطلقها، أو أن أتزوج من هي تليق بي وبمستواي وتلك التفاهات.

تلك التفاهات التي كان غرضها أن أبتعد عنها فقط. ولكن قدرة ربي كانت أعظم. لم يمر الكثير حتى توفيت في حادثة، نجى الجميع سـواها. و كأنما الله اختارها حتى يريحها من تعب هذه الحياة وقسوة سكانها.

وجـدتُ أنني بلا روح منذ ذلك الحين. أخذت معها روحين. كنتُ أحبها كثيرًا، وسعيت كثيرًا حتى أتزوجها وأسعدها، ولكنها اختيرت لتذهب لرب العباد.

تدهـورت حالتـي النفسـية و البدنيـة.. لا طعام لا نـوم .. كل شيء كان صعبًـا عـلي منذ وفاتها. حتى عملي لم أسـتطع الذهـاب إليه.. لإنه مـكان لقاءنـا ومعرفتي بها. كنـت أتعرض لكثير مـن الضغوطات من قبل رئيسي في العمل.. سـيتم الخصم من المرتب.. سيتم فصلي ولكنني ذهبت في يومٍ وأخذت إجازة وتركت كل شيء..

في زحمـة تلـك المشـاكل.. كنـت اشـتكي لصديقي «عمـر»، صديق الجامعـة الوحيد. كنت أحكـي له دائمًا ما يحدث لي حتى أنني حدّثته عن طفولتي البائسـة.. كنـت كثيرًا أخبره بأنني أشـعر باكتئاب، ولكنه كان يطمئنني أنه حزنٌ فقط وسوف يذهب. ولكن في يوم من الأيام لم أحتمل وذهبت أنا بنفسي إلى المشفى..انتهى زواجنا بالفعل بعد سنة ونصف.

سنة ونصف مليئة بالتحديات. سنة ونصف مليئة بالحزن..

وها أنا أقترب من سن السادسة والعشرين..

خمس وعشرون سنة مليئة بالحزن وبالتحكم وبالظلم وكل شيء.. لذا قررت الذهاب للمشفى والابتعاد عن كل ذلك، ولا أمانع إن بقيت بها حتى أتوفى..

كنتُ أقرأ ذلك وأنا في نفس تلك الغرفة. ولكن قد تغير الكثير، فلقد تحسّنت وتجاوزت كل شيء.

لا أُنكر أن قرائتي لتلك الصفحات من مذكرتي أعاد لي ذكرياتي المؤلمة، وأشعرني بتجدد انغراس تلك الأشواك في قلبي، ولكن حتماً انتهى كل شيء. لملمت أغراضي وأنا أستعد لمغادرة هذا المكان.. لأن اليوم موعد مغادرتي من المشفى بعد أن أصبحت على أحسن حال..

أغلقت حقيبتي ووقفت، وأنا أتأمل الغرفة.. تلك الغرفة الصغيرة التي شهدت على الكثير من الحزن و المعاناة، شهدت على ٤ سنوات من عمري.. لا أودّ مغادرتها بتاتًا لإنني اعتدت على وجودي هنا.. ولكن يجب الرحيل؛ لأحارب مع تلك الحياة من جديد و بقلبٍ أقوى.. أخذت حقيبتي وتوجهت إلى الباب الرئيسي للمشفى وأتممت جميع الإجراءات..

وقفت أنظر للشارع وأنا متردد جدًا، ولكن يجب أن أخطو وأتجاوز تلك المرحلة.

نظرت النظرة الأخيرة للمشفى وقلت: «وداعًا يا من سلبت مني الحزن يا من علمتني كثيرًا.. وداعًا يا عالمي الصغير..» ثم وجّهت عيني للشارع وقلت بداخلي: مرحبًا يا حُزني الأكبر.. يامن ستعلّمني وتلقنني الكثير.. مرحبًا يا عالمي الكبير. **نُوران صَبرة**

«فوضى الروح»

بعد عدّة سنوات من الجمال.. من البهجة والسعادة.. انقلب الأمر على عقبيه..

استيقظت من نومها ومزاجها ليس بسيءٍ فقط، بل هو بشع وشنيع.. وقفت أمام المرآة تنظر إلى نفسها وإلى ما حلَّ بها.. إلى عينيها العسلية التي انطفأت بعدما كان يخرج منها بريقًا يضيء عتمة الليالي.. وكيف أن عينيها محاوطتان بتلك ما تسمى «الهالات»، التي أصبحت كالغطاء الحاجب الذي يحجب ذلك البريق من عينيها..

ابتسمت لنفسها ابتسامة صفراء مخبّى وراءها معانٍ كثيرة، وأولها كانت اللامبالاة..

لا تبالي بما يحدث لها أو بما قد يحدث.. فهي تعلم أن لا نجاة من ذلك.. من وقع في هذه العتمة والظلام لا مفر له إلى النور وإن حاول..

«العتمة لا تحجب النور بل إنها طريقك له».

بدّلت ثيابها وأخذت حقيبتها وخرجت من منزلها وقررت أن تحاول فقط العيش في ذلك الكوكب الكئيب..

هـا أنـا أمشي سريعـة الخطـى.. أحـاول أن أتباطأ، حتـى أحاول أن أنظر فقط إلى ما حولي، ولكن كأنما قدماي ترفض ذلك.. ترفض حتى إعطائـي تلك الفرصـة.. هي فقط تريـدني أن انطلـق ولا أتوقف، وإن توقفت فلا مكان لي سـوى أن أجد نفسي في مكانٍ واسع. ليس المهم إن كان عند الشـاطئ أم في أحد الحدائق، ولكن الأهم هو أن يكون خالٍ من جميع تلك الكائنات السخيفة التيتدعى بشر..

و بينـما أنـا أمشي شـاردة الذهـن لا أعلم بـمَ أفكر.. أجـد نفسي قد وصلت إلى الشاطىء..

لا أحد موجود. وهذا أمرٌ غير معتاد في هذا الوقت، ولكني لم أبالي وجلست..

«الأوجاع تزاحمت علي كثيرًا، أريد الاتّساع».

اعتـادت دائمًا أن تجلس عند الشـاطىء، أن تخـرج مذكرتها وتكتب. تكتب ما يحدث لها في يومها، وبما أرادت أن يحدث، تكتب ما يراودها وما يدور في رأسها وما كُتِم في قلبها. ولكن ليس بعد الآن. إنها تغيرت كثـيرًا بـل انقلب حالها. لا تكتُب شـيئًا وإن كتبت فما هـي إلا خواطر. ليست بخواطر بالفعل وإنما هي تخرج ما بجعبتها.

تخرج اليأس والحزن وكل ماهو قد يكون سلبيًا، ولكن يبقى الأسوء في القلب.

«وما خُفي كان أغرب وربما أسوء».

صمتـت قليـلًا. وجّهـت عينيها نحـو البحر. رأيت الأمـواج وهي تتلاطـم.. وكيف أن الموجة بعدما وصلـت لأقصى ارتفاع جاءت تلك الموجة التي دمّرتها، وجعلتها تنتهي..نعم إن الحياة هكذا..

بعدما تصل لأقصى مراحل الفرحة تأتي تلك العاصفة مجهولة الهوية، وتقضي على فرحك وتجعلك تعود مرة أخرى إلى نقطة الصفر.

أود أن أكتب، أود أن أخرج كل تلك العقد التي بداخلي.. لن أستطيع الصمود أكثر.. انهياري بعد حين سيكون أشنع شيئًا على وجه الإطلاق..

«إلى مَتى يا قلبي؟ إلى متى ستؤلمني الأيام؟ وإلى متى سأكتم الأحزان»..

أخرجت مذكرتها وقلمها المفضل.. فتحت صفحة بيضاء، وهي تعلم أن ما ستكتبه سيشوّه بياض تلك الورقه مثلما شوّه نقاء قلبها..

لم تشأ أن تكتب ما يدور في رأسها.. فهناك فوضى تدور به..سردت فقط ما حدث لها..

أكتب اليوم ما بي.. أعلم أنه لا يُكفي حتى أُخفف عن نفسي مرارة الحزن وعبء الحياة، ولكن ليس لدي خيار آخر..

خسِرتُ أهلي.. خسِرت عملي.. وخسِرت من أحببت.. والأهم من ذلك أنني خسرت نفسي..

توالت هذه الأحداث بعضها البعض في غضون عدّة أشهُر.. نعم أنا متعجبة ممّا حدث وأكاد لا أصدّق حتى الآن ما حلّ بي .. وإلى أي حالٍ وصلت.. ولكن ما أعلمه أنني حاولت كثيرًا حتى لا أخسر كل هذا. وأنني على استعدادٍ بالخوض في عدة محاولات أخرى لاسترجاع ما فقدت..

دعوني أُحدّثكم عن كل شيءٍ بحذافيره..

أنا وحيدة أمي وأبي.

أمي الجميلة الشقراء، تلك المرأة التي مهما زاد سنّها إلا وأنها تصغر في العمر. مهتمّة بجمالها، بأصدقائها، وبكل شيء عدا أنا.

أبي رجل الأعمال، ذلك الرجل الذي يتحدث عنه جميع سكان البلدة، صاحب المشاريع الكبيرة والانجازات العظيمة. مهتمٌّ بأعماله ولقاءاته واجتماعاته، كثير السفر، هو أيضًا مهتم بكل شيء عدا أنا..

كل هذا كان سببًا كفيلًا لحدوث تلك المشاكل والنزاعات بينهم.

كنت أعتاد يوميًا بسماع تلك النقاشات الحادة التي تدور بينهم، وتنتهي على أن كل شخص له حريته.

كل نزاع يحدث كان يغرس بقلبي شوكة، حتى امتلأ قلبي بتلك الأشواك اللعينة.

حاولت الصمود كثيرًا ولكنهم لم يصمدو، وقرروا الانفصال وأن يعيش كلٌ منهم حياته على حدا. لم يفكر بي أحدٌ بتاتًا.

لم أخطر على بال أحدهم ولو ثانية. وجدت نفسي استيقظ في اليوم الذي يلي شجارهم.. وكل منهم قد لملم أغراضه وسافر. لم يتركو لي الفرصة. لم يضحّوا من أجلي . فقط تركو لي المال.

وذلك الخبر الذي جعل قلبي يتمزق وينزف بعدما فقد القدرة على الصمود.

حزنتُ كثيرًا على حالي وإلى ما وصلت إليه.

لا ذنب لي بكل هذا؟ لما إذًا أنجبتني أمي، إذا كنتم ستفعلون بي هذا؟ لما لم تتركوني أموت عند ولادتي بدل أن تركتموني أموت في حياتي؟.

أصمد من جديد يا قلبي أصمد..

خسرت عملي. نعم خسرته ولم أعلم لماذا اضطهدتني الحياة للمرة الثانية.. بدأت بالعمل بعدما كرهت الجلوس في البيت. نعم منذ أن تركوني وأنا في البيت لم استنشق هواءً من وقتها. تمللت كثيرًا وفكرت لما لا أشغل نفسي في أي شيء. حاولت أن انشغل في شيء، ولكن كان عقلي يفكر كثيرًا.

يفكر في كل ما حدث مرارًا وتكرارًا.

فقررت أن أعمل وأجبر نفسي على التفكير في العمل فقط. قدّمتُ على وظيفة في إحدى الشركات وتم قبولي بالفعل وبدأت العمل..

كنت أقوم بعملي على أكمل وجه.. كان رئيسي في العمل سعيدًا بي حقًا حتى أنّه كان يفضلني أحيانًا عن باقي زملائي في العمل. وذلك لإتقاني للعمل وما إلى ذلك. كان هذا يثير في نفوسهم الغضب و لكنني كنت أفترض حسن النية دائمًا وأتجاهل هذا التفكير..

مرّت أسابيع وحقًا أحببت فيها عملي جدًا، حتى إنه أصبح جزءًا لا يتجزأ من حياتي.. ولكن الحياة فعلًا كالأمواج..

وصلت إلى أقصى ارتفاع الآن، وكان يجب أن يكون هناك موجة تلاطمني وتجعلني انتهي..هذه الموجة هي زميلتي في العمل..كانت تتميز بالذكاء، ولكن ذلك الذكاء السلبي ما يسمى في حياتنا «كيد النساء».. لفّقت لي جريمة بوجود كافة آثار الجريمة وبالتأكيد إنها خرافات لم أقترف منها شيئًا. حاولت كثيرًا إثبات عكس ذلك، ولكن الأمر كان محسومًا فتم طردي من العمل..

شعرت بغصة ولكنها تجاهلت وقررت أن تُكمِل قصتها..

«فرفقًا بي يا وجع، والله ما عاد في الروح متّسع».

لم أرغب بتاتًا أن أبدو ضعيفة. سواء أمام الناس أو حتى أمام نفسي، أحزن علي حالي وإلى ما وصلت اليه..

لا أحب المساعدة.. الاستنجاد بالآخرين.. لا أطلب أي شيء من أحد مهما كان.. لذا في فوضى هذى المشاكل قررت الابتعاد عن أصدقائي. انقطعت عن الحديث معهم نهائيًا. وجدت أن أغلبهم قد انتهز هذه الفرصة وابتعد.. ولكن تبقت صديقة واحدة هي من حاولت أن تصل إلي بشتّى الطرق..

أذكُر يومًا أنني وجدت رقمًا غريبًا يتصل بي.. لم أرد عليه بتاتًا.. ولكنه كان مزعجًا، كان يراود الاتصال مجددًا حتى إذا أنهيت المكالمة. وحين وصلت لأقصى مراحل العصبية أجبت على الهاتف.

وإذ بي أسمع صوتها تقول لي «أخيرًا وجدّتك». تبادلنا الحديث، كنت أحكي لها ما حلَّ بي، استمر ذلك التواصل قرابة إسبوعين ثم انقطع كل شيء.

حاولت الاتصال بها، حاولت كثيرًا وكثيرًا.. فعلت الكثير حتى أراها أو أتحدث معها. ولكن لا جدوى.

أرسلت لي يومًا رسالة على هاتفي كان نصّها «سئمت من هذه الحياة كثيرًا، لذا قررت أن أسافر وابتعد، أريد حياة جديدة وأناسٍ جُدد. إلى اللقاء»

لم تُعطني حتى الفرصة للحديث أو الجدال. أخذت نفسها ورحلت بكل استهتار دون أن يُأنبها ضميرها لثانية، ولم تفكر حتى بحبّي لها، ورغبتي بوجودها هنا. حزنتُ كثيرًا..

بعدما وجدت نفسي أتحسن كانت تلك المرحلة أقصى شيء أصل له. جاءت نفس الموجة وهدمتني مجددًا..

بعد الذي حدث من أقرب الناس إلى قلبي، أجد نفسي وحيدة مجددًا، باهتة الملامح، شاحبة الوجه، رغم أن بداخلي فوضى تكفي لإفساد هذا العالم بأكمله..

«هكذا نحن بدون أحبتنا.. كشوارع مُظلمة سوداء، رغم الضجيج الذي يسكُنها»

مررتُ بالكثير والكثير. فهمت وتعلمت أيضًا. قلبها الذي كان ينبض بكل سهولة قد تثاقل اليوم. قد أصبح مليئًا بالهموم والأحزان.. أيخسرُ المرء قلبه الذي هو أساس الحياة؟

أدركت أن حياتها قد مرت بلا جدوى..

إنه كان من المفترض عليها أن تسير في الطريق الآخر.

أن تعاند تلك الأحزان، ولا تجعلها تخترق غطاء قلبها وتعيش بداخله.

أن تجعل من قلبها درعًا لحمايتها، وكأنما الأحزان هي العدو فتدافع عن نفسها وتبعدها عن طريقها.. لو أنها سلكت الطُرق المنجية بدلًا من سقوطها في الحفرة السوداء المليئة بالحزن والكآبة..

أغلقت مذكرتها بعد ذلك الحديث الطويل..

«لا أود أن أفنى. أود أن تبقى روحي نقية وقلبي مطمئِن.. لست أنا من يسـلّم نفسـه للأحزان. ولسـت أنا من يستسلم لها ويجعلها تخترق روحه وقلبه شيئًا فشيئًا..»

نظرت إلى البحر مجددًا، وفي عينيها بريقٌ يكاد أن يطغى على نور القمر.

قطّعـت تلـك الأوراق المليئة بالهمـوم والذكريـات الحزينة، ورمتها ليبتلعها البحر..

ابتسمت وقالت: «عُذرًا أيّتُها الحياة سأعيش حياتي لنفسي»..

.

الكاتب في سطور

»» طه حسين أحمد

ـ اسم الشهرة: أحمد حسين
ـ من مواليد محافظة كفر الشيخ
ـ طالب بكلية التربية

لقـــاء عابـــر

أنزل الليل ستائره السوداء معلنة عن قدوم الظلام. بعض من نسيج الهـواء يداعـب النوافذ. النجـوم مازالت متيقظة في اهتيـاج، والقمر في هذه الليلة كأنه دائرة لامعة تتوهج في السماء.

الجميع في سكون وهدوء.

أيقظه رنين هاتفه النقال. كان الوقت قبل الفجر، كان عقربا الساعة يشيران إلى الواحدة صباحًا. مد يده ببطء بعد أن شعر بتنميل في أطراف جسده، ليوقف ذلك الرنين المزعج، مسـح جبينه الذي كانت تتلألأ عليه حبات العرق. جلس في منتصف السرير يلتقط أنفاسه بعد رؤيته لكابوس مزعج.

غـادر غرفته بعـد أن هدأ قليـلًا. مر بـرواق المنزل، سـار بخطوات ضئيلة إلى الحمام؛ ليأتي ببعض من الماء الدافئ؛ ليسـكبه على رأسه، لعله يبعد عنه الأفكار التي تؤذي عقله، وتنهش قلبه، التقط المنشفة، ووقف أمام المرآة، يتأمل نفسه وكأنه يطالع شخصًا غريبًا:

«أنس» شاب طويل القامة، داكن البشرة، مواليد برج «العقرب» يعمل كطبيب جراح، تخرج من كلية الطب منذ ٣ سنوات. يعمل في إحدى المستشفيات بمحافظة كفر الشيخ. كان ذا عينين سوداتين واسعتين، حاجبين كثيفين كاد يلتصقان، ولديه شفتان قرمزيتان، وأنف ذو انحناءة بسيطة في وسط وجه مستدير، ويظلله لحية خفيفة وشارب خفيف يتمدد على شفتاه. متقلب المزاج، سريع الغضب، عصبي لدرجة حادة، مثقف، رقيق القلب، عطوف المشاعر، يهوى الجلوس على البحر، انطوائي، منعزل عن الجميع يميل إلى الوحدة.

ويتمتم مع نفسه:

كيف؟ كيف أصبحت بهذا السوء، أنا لا أعرف؟ من هذا الشخص؟ كيف أصبحت حياتي باهتة؟ كيف وصلت إلى هذا الحد؟ كيف أصبحت وحيدًا؟ أو قل كيف أصبحت الوحدة جزء مني؟

أين ذهبت تلك الابتسامة؟ أشعر أني بلغت من العمر أرذله، مع أني مازلت شابًا.

أشعر أني في القاع، ولا أستطيع النهوض، لا أحد يمد لي يد العون هل سأظل هكذا؟ إلى متى سيقيدني الخوف؟ إلى متى سأظل غارقًا هكذا؟ أعترف لقد أرهقتني الحياة كثيرًا.

جلس على الأريكة، يتناول كوبًا من القهوة، تظهر عليه علامات الإرهاق. رن جرس الهاتف ظهر على الشاشة اسم «خالد» صديقه ضغط على زر الإجابة:

أين أنت يا أنس أحادثك منذ ساعات ولم تجبني؟

نعم، نعم أعتذر كنت مشغولاً قليلًا.

لا مشكلة، هيا تجهز، حان موعد الذهاب للمشفى..

نعم نعم أتذكر سأكون جاهزًا بعد قليل..

تجهز «أنس» في عجل وغادر المنزل منتظرًا صديقه «خالد». أتي بعد عشر دقائق من الانتظار.

«خالد» هو صديق «أنس» من أيام الجامعة دامت هذه الصداقة أكثر من ٧ سنوات. هو أقرب شخص إليه، كان يفهم كل ما يريد قوله دون الحديث. كأنه يصغي إلى قلبه، كان يعرف عنه كل تفاصيل حياته. يشاركه الأحزان قبل الأفراح، يقف بجانبه دائمًا كان سندًا وعونًا.

من مواليد برج «الجدي» كان ذا بشرة قمحية، وعينين بنيتين، حاجبين متموجين على وشك الالتحام، شعر أجعد، أنف طويلة، وعلى جانبها لحية خفيفة، وشارب متوسط الطول يتمدد على شفتيه. مرح، يثرثر كثيرًا، كثير المزاح، يميل إلى سماع الموسيقى، وخاصة لأم كلثوم، لا يحب الحزن ويعاتب صديقه دائمًا على هذا الحزن..

ركب أنس السيارة وانطلقا حتى وصلا إلى المستشفى في الميعاد.

كانت المستشفى مبنى قديم ضخم مهترئ جدرانه، على وشك السقوط مطلية باللون الأخضر. كانت كل النوافذ مغطاة بقطعة من القماش فور دخولها. تجد رائحة كريهة تفوح من الحمامات، كانت هناك حالة فوضي كبيرة، نظرًا للحالة الطارئة الموجودة بالداخل.

أسرع أنس وخالد بالصعود، سئل خالد أحد الممرضين قائلًا:

من تلك التي بالداخل؟

قال: هي ابنة أحد الشخصيات المهمة لا أعرف والدها بالتحديد، ولكن كما قيل لي أن هناك فوضى عارمة حدثت منذ مجيئها..

التفت خالد ولم يجد أنس بجانبه، وهمَّ مسرعًا للبحث عنه..

كان أنس قد ذهب إلى مكتبه، كانت غرفة ضيقة لا يوجد عليها باب، وجدرانها متآكلة مطلية باللون الأزرق. وتتكون من مكتب صغيرعليه بعض الأدوات الطبية، ودولاب متوسط الحجم يميل إلى الإصفرار قرب الباب به بعض من الملفات وبعض الملابس، وكومدينو صغيرعليه بعض الزجاجات الفارغة. جاء مدير المستشفي محدثًا أنس بنبرة فيها شيء من الغضب قائلًا:

هناك حالة خطيرة بالداخل قد تعرضت لحادث سير. عليك أن تسرع وإلا طردتك فورًا، وهمَّ بالخروج.

غمغم أنس قائلًا:

أغرب عن وجهي أيها العجوز الأحمق.

وارتدى ملابسه وغادر المكتب متوجهًا إلى تلك الحالة التي يتحدث عنها الجميع. كان الباب موصدًا من الداخل. طرق الباب ثلاث طرقات، وفُتح الباب ودخل. زينت الغرفة بالكامل كأنها لعروس في ليلة زفافها. كانت فتاة جميلة في منتصف العشرين من العمر، كان وجهها ملطخًا بالدماء. ولم يمنع ذلك أنوثتها البارزة، تمتلك عينين بندقيتين، شعرًا ناعمًا ينسدل منه خصلتان من وراء الحجاب، خصر منحوت كأنه رُسم خصيصًا لها. كيف لهذا الجمال أن يختبئ وراء الحجاب؟ سار بخطوات متثاقلة، اقترب منها، كان لأول مرة يشعر بصوت دقات قلبه، كأنه يعرف من هي. استمر في الاقتراب إلا أن توقف فجأة، بل توقف كل شيء من حوله. شعر بتنميل في أطراف جسده، انتابته حالة من الذعر، أُلجِم لسانه من الصدمة، كانت حبيبته السابقة «أنين». تسارعت دقات قلبه، كم تمني أن لا يراها ثانية، أو أن يُذكر اسمها أمامه..

قالت أنين فجأة محدثة أنس: أين أنا؟ ولِمَ جئت إلى هنا؟ ماذا حدث لي؟

ارتجفت كل ذرة في أنس، وارتفعا حاجباه في دهشةٍ وقال: ألا تتذكرين شيئًا؟

قالت وهي ترمق المكان بنظرةٍ سريعةٍ وانهارت في البكاء:

لا أتذكر شـيئًا، لا أتذكر، ابتعدوا، هيا ابتعدواعني، لا أريد أن أري أحدًا، وصاحت وقد أثار ارتفاع صوتها جميع من يتواجد بالخارج..

اقترب أنس منها بهدوء وقال: لا تقلقي، أنا بجانبك، أنا هنا لمساعدتك.

استجابت أنين وشعرت براحة وثقة كبيرة في حديثه، كأنها تعرف هذا الشخص، حتى أنها في كل خطوة يقوم بها كانت تنظر إليه.

فُتـح باب الغرفة، ودخل رجل كبير في السـن بالغًا من العمر خمسـة وخمسـين عامًا، قصير القامة، بدين الجسـد، على رأسه الأصلع قليل من الشعر الأبيض، له وجه أصفر، شائب اللحية. يرتدي قميصًا أبيضًا يتميز بـأن قميصه يكون فاره البيـاض، وبنطال قماش أسـود اللون، وجزمتيه الملمعتـين بأناقة، ويرتدي قبعة أنيقة. وفي إصبعه الأكبر خاتم ضخم فيه قطعة من الماس. هذا وأن وضعه يكشف عن شيء من الوقار..

قال بلهجةٍ فيها شيء من الكبرياء والوقار محدثًا أنس:

ماذا بها؟

قد تعرضت لفقدان في الذاكرة مفاجئ بسبب الحادث..

يا إلهي! فقدان في الذاكرة. يا إلهي كيف حدث ذلك؟

سـأشرح لك الفقدان في الذاكرة هو تعرض الشـخص فجأة لحالة مـن عدم التذكر لمعلومات وحوادث مـن المفترض طبيعيًا أن يتذكرها.

وقـد تكون حـوادث حصلت منـذ دقائق قليلـة أو مواقـف حدثت في المـاضي أو حتـى المعلومات المسـتقبلية التي سـتمرعليه. وقـد يتعرض الشـخص المصـاب بفقـدان الذاكـرة لعدة نوبات تسـتمر بضعـة أيام، وتذهب ثم تعاود الظهور مرة أخرى..

يا إلهي سأنقلها إلى الخارج على الفور..

قـال أنـس: لا ليس هنـاك فرق كبـير يا سـيدي بين هنـا وهناك بل ستكون الرعاية هنا أفضل، لا تقلق، لا تقلق سأهتم بها..

إذن ما العلاج؟

لعـل العـلاج النفسي والروحـي هو الأهم لأي مـرض. هو الخطوة الأهم فلا بد لعائلة المريض ومن حوله مسـاعدته على تخطي هذه الحالة بمراعاته ومساندته. سأشرف عليها كل ساعتين، أرجوكم لا تحبطوها أو تسألوها أية أسئلة سخيفة، ينبغي أن تنل قسطًا من الراحة.

قال الرجل: نعم نعم لا تقلق لن أحدثها..

هم أنس بالخروج وهو فريسة اضطراب عميق حتى أنه توقف عدة مرات مذهولًا، بعد أن ترقرقت الدموع في عينيه، واشتد حنقه فلما صار في الممر هتف يقول:

«آه ربـاه! ما أبشـع هذا كلـه! كيف؟ لكن لم يجـد أنس الكلمات التـي تعبر عـن حالته العصبيـة الرهيبة التي حلت به بعـد أن رآها.

كـم تمنـي أن لا يتم هذا اللقاء في أي حال من الأحوال؟ كم تمني أن ينسى هذا الوجه؟»

لقـد ابتعـد كل البعد عـن الجميـع، لكن مازالـت بذاكرتـه. لقد بدأ يجثـم على صدره ويقبـض قلبه ويخنقه خنقًا. لا يعرف كيف يتخلص من هـذه النازلـة التي تحيط به؟ وهذا الحزن الذي عصـف قلبه من كل مكان حيثـما يذهب، تظهر لـه إلى أن عاد إلى مكتبه، ووجد خالد صديقه يجلس بالداخـل. فـزع خالد عندمـا رآه، كان أنس في حالة من الهذيان الشـديد وشاحب الوجه، شارد الفكر، وقد عبر وجهه عن حالة الحزن والكرب..

قال خالد بلهجة خائفة ومتوترة:

ماذا حل بك؟

قال أنس وهو مبتسم رغمًا عنه: لقد، لقد رأيتها.

رفعا خالد حاجبيه في دهشة وقال: ماذا؟ ماذا تقصد؟

قال أنس وقد نفذ صبره: أنين.

قال خالد وهو في حالة ذهول: أنين؟ آه رباه! كيف؟ لا يمكن!

نعم نعم هي التي أصيبت بالحادث..

قال خالد متسائلًا في تردد: وكيف حالها؟

لقد فقدت الذاكرة وبعض الإصابات الطفيفة.

صمت كل منهما لمدة لا تقل عن عشر دقائق وغمغم خالد قائلًا:

مازلت تحبها؟

فأجابه أنس مجمجمًا:

هي في ذاكرتي دائمًا، لم أستطع نسيانها قط. أو قل لم أنساها ولو للحظة واحدة. ولم تكن في ذاكرتي فقط. لم تتركني وجاءتني في أحلامي بطفولتها المعتادة، وضحكتها التي تهز كل شيء من حولها. كنت أذهب إلى الأماكن التي كنا نتقابل فيها. وأجلس بالساعات الطويلة أفكر بها؟ كنت، كنت أشعر بوجودها قبل أن تأتي، أشعر بوجودها في كل شيء أقوم به. قد أحببتها من صميم قلبي. إذن لِمَ كل ذلك الألم هل أستحق ذلك.

قال خالد وقد ترقرقت الدموع في عينيه:

لكل حياة حصيلة من الألم، والفائز هو من يتخطى تلك الآلام ويستطيع أن يمارس حياته.

«أيقظه رنين هاتفه النقال كان الوقت قبل الفجر. كان عقرب الساعة يشير إلى الواحدة صباحًا. مد يده ببطء بعد أن شعر بتنميل في أطراف جسده، ليوقف ذلك الرنين المزعج مسح جبينه الذي كانت تتلألأ عليه حبات العرق. جلس في منتصف السرير يلتقط أنفاسه بعد رؤيته لكابوس مزعج، غادر غرفته بعد أن هدأ قليلًا.

مر برواق المنزل، سار بخطوات ضئيلة إلى الحمام ليأتي ببعض من الماء الدافئ، ليسكبه على رأسه لعله يبعد عنه الأفكار التي تؤذي عقله».

«الآن يسمع رنين هاتفه النقال ربما يكون صديقه خالد يذكره بأنه قد حان موعد المستشفي».

(تمت)

الكاتب في سطور

»» سامي محمود عبدالله علوان

- اسم الشهرة: سامي علوان
- كاتب مصري من مواليد محافظة البحيرة
- حاصل على ليسانس حقوق جامعة الزقازيق
- حصل على العديد من الجوائز في القصة القصيرة
- عضو نادي الأدب بقصري ثقافة الزقازيق والعاشر من رمضان
- عضو مجلس إدارة قناة وشبكة أخبار مصر
- كاتب صحفي لدى جريدة صدى الأمة
- صدر له مجموعة قصصية بعنوان «ليلة في روض الفرج» عن دار كاريزما للنشر والتوزيع

لا تقتلني .. أنا طفل

الدماء تنزف، والنساء تنوح، والعواصف ترعد، والقنابل تتساقط في كل مكان.

وفي وسط القتلى يوجد طفل صغير ما زال على قيد الحياة. إنه طفل من أطفال الحجارة، وقد نجى بإعجوبة من طلقات المدافع والرشاشات. يبحث عن أمه التي كانت تضمه إلى صدرها منذ لحظات. ويمشي الطفل وقدميه تتحرك في بطءٍ وتثاقلٍ. وكان سيره بطيء للغاية وسط الدماء، ووسط القتلى. وهو يبكي ويصرخ ويقول: (أماه، أماه، أماه) أين أنتِ؟.

ولم يمر وقت طويل حتى وجدها وسط القتلى، فَخَر مغشيًّا عليه في مكانه. عاد الطفل على صوت المدافع والرشاشات ينظر باكيًا إلى أمه، فوجد قنبلة يدوية بجوارها.

قرر الطفل الانتقام لأمه من ذلك العدو الغادر الذى حرمه من حنان الأم والوطـن. ومشـى الطفل تائهًا حيران لا يعرف أي طريق يسـلك، يفكـر في أمـه وهو يبكى والدمـوع تنهمر من عينيـه. وانتهى الطفل من مشيه إلى طريق ضيق يؤدي إلى بيت مهجور، بات فيه ليلته وسط العراء والبرودة الشديدة.

اسـتيقظ الطفـل في الصباح، وجـرى وجرى وصعد عـلى قمة حطام دبابة بجانب الطريق، وانتظر حتى اقتربت دورية العدو. وما إن أصبحت بجانبـه حتـى أسرع وألقى عليهـا القنبلة، فاشـتعلت الدوريـة. وجرى الطفـل وهو يلهـث، وأخذتـه قدماه إلى حيـث صوت الريـاح والبرودة الشـديدة وسط الصحراء. وتحركت قدماه على الرمال، وكان سيره بطيئًا للغاية من شدة التعب، وهو يصرخ باكيًا ينادي: (أماه، أماه، أماه).

وسـبح الطفل ببصره في ذلك السهل الكبير المترامي الأطراف، وهو يحترق من نيران العدو، يفكر في أمه وفي وطنه الذى سـلب منه. لم يحس الطفل بمرارة وألم الجوع والعطش قدر ما أحس بمرارة الحرمان. وكان قلبـه مضطربًا زجرًا لما حـدث. ولم تقعده حاجتـه إلى الطعام والشراب عـن المسـير. وتملكه العطش وكان قـد تراءى إليه نهرٌ مـن بعيدٍ، ولكن وجـده سرابًا. وظل الطفل يجري هنـا وهناك حتى نفذت قواه، وأحس الطفل بلهيب الشمس تكاد تحرقه.

وأدرك الطفل أن قواه لن تساعده، حتى على أن يبلغ ذلك النهر الذى تراءى له من بعيد، فخر مغشيًا عليه. ولم يعرف الطفل كم مضى عليه من الوقت، وعاد مرة ثانية وتحركت قدماه على الرمال، وهو لا يكاد يرى من الغبار والرمال، ويمضي الطفل. وإذا بأقدامٍ تمنعه عن المسير. فإذا بأقدام جندي إسرائيلي، فاصفر وجه الطفل منٍ الخوف، وأخذ يتذكر أمه مستجمعًا قواه.

ينادي الجندي بصوت قوي يقول له: من أنت؟.

أنا طفل فلسطيني، سلبت وطني، وقتلت أمي، وجئت إلى هنا أبحث عن الماء.

«أذهب إلى هذا البرميل لأن الماء فيه كثير».

وشعر الطفل بضعفه، يعود إليه وأخذ يزحف ويزحف على الرمال، وهو يصارع الموت وهو يبكي. وصل الطفل إلى البرميل، ووضع يده الصغيرة على غطاء البرميل، وأخذ يرفعه وأمسك بكوب الماء؛ ليضعه على فيه الصغير. وارتمى، وارتمى الطفل على الأرض كعصفور صغير وقع من عشه. وكانت أخر كلماته: لا تقتلنى. أنا طفل. لا تقتلني أنا طفل.

الجنة المفقودة

فتاة ذات حسن وجمال تعيش نشوة الحب والهيام وسط وعوده البراقة التي يزفها إليها. وبكلماته الرقيقة المعسولة ذابت مشاعرها، فتاه عقلها عنها. حتى تزوجته عرفيًا ومضيا معًا أيامًا قليلة خلسة من أهلها. حتى ملها وسأمها ورغب عنها، وأخذ يتهرب منها، ويختلق لها الأعذار.

حتى أحست بشيء غريب يتحرك في بطنها، فذهبت إليه تتوسله خوفًا من الفضيحة والعار. حتى هرب منها إلى ليبيا وما أن وصلها حتى أعد العدة؛ للهرب منها إلى إيطاليا، وأخذ يبحث عن سماسرة التهريب الأسود.

ووسط الظلام الدامس الرهيب تسلل القارب متجهًا في عرض البحر. وهو ينظر إلى تلك الأمواج العاتية التي بدأت تؤرجح القارب، وتضربه بكل قوة مسببة حركات غير منتظمة. وأخذ الصراخ يعلو شيئًا فشيئًا.

وانتابهم الهلع، وساد الخوف، وجرى الركاب على سطح المركب هنا وهناك يبحثون عن أطواق النجاة. حتى أخذته الأمواج وغاص بأعماق البحر وتوارى عن الأعين، فهلكوا جميعًا وسط الأمواج العاتية.

وتصدرت صور الغرقى الصفحات الأولى في الصحف والمجلات. أحست الفتاة بحجم الكارثة. حتى أصبحت مشوشة التفكير، لا تدري ماذا تفعل؟. أخذت الفتاة تبحث عن حلٍ لتلك الكارثة التي لحقت بها. وصعدت إلى غرفتها، واتجهت ناحية النافذة وهى تحدق بنظرها ناحية الأرض. وأصابتها رعشة خفيفة وأخذ العرق يتصبب منها، وأنفاسها تزداد حدتها ما بين شهيق وزفير، ويكاد قلبها أن ينفجر، ووضعت قدميها على أرضية النافذة، بعدما صعدت إليها وأغمضت عينيها، وسلمت نفسها لأول نسمة هواء عابرة حتى تهوي بها إلى أرضية الشارع.

فأدركتها والدتها وجذبتها بكل قوةٍ إلى داخل الحجرة، لتفقد الوعي.

أخذت الأم تضرب على وجهها، وتصرخ في أعماقها من هول الصدمة الشديدة. وتركتها تنام داخل الحجرة، وبخطى بطيئة وبقلبٍ منكسرٍ أخذت الأم تسير إلى حيث يجلس زوجها. وما إن رأته حتى همست في أذنه بالفاجعة، فاسود وجهه، وجرى الدم في عروقه، وتيبست معالم وجهه، وابيضت عيناه، وجهزت الأم كفن ابنتها.

تسللت البنت وسط الظلام في غفلة من أمها قبل أن ينكشف سترها. الساعة تقترب من الواحدة بعد منتصف االيل. وسعيد المراكبي يلف بحبل المعدية حول الوتد الحديدي داخل المرسى؛ لينهي عمله؛ ليتجه بعدها إلى حيث ينام. وبينما هو على هذا الحال رأى شبحًا يجرى وسط الظلام، يجرى ناحية مرسى المعدية.

إنها فتاة في العشرين من عمرها. وما إن وصلت إليه حتى أخذت ترجوه وتتوسل إليه أن يعبر بها بسرعة إلى الشاطىء الآخر. وصعدت إلى سطح المعدية، وجلست تلتقط أنفاسها، وما هى إلا لحظات تفقد بعدها الوعى. وتقع على أرضية المعدية فيفك سعيد المراكبي الحبل من حول الوتد الحديدي، ويصعد قافزًا إلى سطح المعدية ويمسك بالحبل، ويشد ويشد حتى تبدأ المعدية في حركتها وسط الأمواج متخذة طريقها إلى الشاطىء الآخر. وما إن رست المعدية حتى حمل الفتاة على كلتا يديه، وصعد بها درجات السلم في طريقه إلى المستشفى. والهواجس والظنون تلعب بخيالات عقله، وأخذ العرق يتصبب منه.

دخل سعيد المراكبي حاملًا الفتاة إلى حجرة الطبيب، ووضعها برفقٍ على السرير، وبدأ الطبيب في الكشف على الفتاة، وبدت عليه علامات الفرح والسرور، وبادر الطبيب قائلًا: مبروك زوجتك حامل.

تعجب سعيد المراكبي، وأمسك بروشتة الدواء وخرج يبحث عن أقرب صيدلية؛ ليشتري منها الدواء. وما إن انتهى من شراء الدواء حتى عاد سريعًا، ورفع الستارة فإذا بالسرير خالٍ. عاد سعيد المراكبي إلى الوراء متجهًا ناحية الممرضة يسألها عن الفتاة، فأخبرته أنها انصرفت منذ قليل.

فخرج من باب المستشفى وهو يرثى حال تلك الفتاة التي أصبحت لغزًا محيرًا له، لا يستطيع فك طلاسمه المتشابكة.

وأخذ يسأل نفسه عن مدى العلاقة ما بين الصحيفة التي كانت تمسك بها، والتي كانت بها صور الشباب الغرقى أمام السواحل الإيطالية، وعن الحالة التي كانت بها حتى وصل إلى مرسى المعدية.

وهبط درجات السلم وصعد إلى سطح المعدية، وأمسك بحبلها، وأخذ يشد بكل قوة متجهًا إلى مرساها على الشاطىء الأخر. وبينما هو على هذا الحال سمع صوت آهات تعلو شيئًا فشيئًا فانخلع قلبه وجف ريقه، وسرت قشعريرة خفيفة بجسده واصفر لون وجهه. والتفت ناحية الصوت فوجد الفتاة ترقد على الدكة الخشبية تتلوى من شدة الألم، فهدأت نفسه وأخذ الدم يجرى في عروقه، وأخذ يشد الحبل حتى وصل إلى المرسى، وحمل الفتاة واتجه بها إلى كوخه الصغير، وقام على رعايتها.

واستيقظت الأم من نومها على غير عادتها، وذهبت ترقب ابنتها فلم تجدها. فصرخت بأعلى صوتها، فنهض الأب من نومه، وأخذ يبحث عن ابنته في كل مكان حتى وصل إلى مرسى المعدية. وأخذ ينظر ويبحث حول المرسى، فإذا بحقيبة ملابس ابنته بجوار الوتد الحديدى فأجهش باكيًا ناعيًا غرق ابنته في النهر.

وشاع في البلدة أن ابنته قد غرقت في النهر، وتقبل التعازي من أهل القرية في ابنته، وأضمر في نفسه ما يخفيه.

مرت الأيام تباعًا وسعيد المراكبي يقوم على رعاية الفتاة. وما هى إلا أيام قليلة باقية؛ لتنجب طفلًا. وكم كانت فرحة سعيد المراكبي بهذا الطفل الذى احتضنه وأغدق عليه من ينابيع الحب؛ لينسيه سنين البؤس والحرمان؟ وبعد تردد وحيرة وافقت الفتاة على الزواج من سعيد المراكبي، بعدما رأت حبه الشديد لطفلها الصغير.

وتمر الأيام ويشتد عود الطفل، حتى أنه لم يعد يفارق سعيد المراكبي. وتعلق قلب كل منهما بالآخر.

وذات مساء أحست الزوجة بشيء يتحرك في بطنها، فانتابها الخوف على ولدها الصغير خوفًا من أن يتحول حب سعيد المراكبي لولدها إلى المولود الصغير.

وتمـر الأيـام ويبدأ الأب في الشـكوى مـن الآلام الحـادة بجانبه على فـترات. ليحـس بعدها بآلام شـديدة يتلـوى منها عـلى الأرض، ليرقد بعدها داخل الكوخ يعاني من المرض.

خرجت الزوجة تبحث عن عمل يعينها على مصاريف علاج زوجها. وبعدما يأسـت من الحصول على عمل مناسـب، حملت عـلى يديها صينية دائرية الشـكل يتراص عليها أكواب الشـاي، وتحمل عـلى يدها الأخرى بـراد مـن الألومنيوم يتصاعد البخار مـن فتحته الجانبيـة، وتبدأ بعدها في المسـير وسط السيارات المتراصة داخل المحطة بجوار بقايا المعدية. وما إن تنتهي حتى تعود من جديد لتجلس على صخرة صغيرة اتخذتها مقعدًا لها.

تجلس ويبدوعليها علامات حزن دفين يسري في أعماقها وما إن تلتقط أنفاسها، وتغلي المياه داخل البراد حتى تنهض سريعًا؛ لتكمل عملها. وتمر الأيام وحاجة الأسرة إلى المال أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب.

وجاء يـوم الفراق والأم تحتضن ولديها. وتجلس حول فراش الموت حيـث يرقـد الأب يعانى مـن الآلام، وبيـد ترتجف تمسـح الأم عبرات زوجها، وهى تواسـيه. وهو يبدل نظراته ما بـين الطفلين وأمهما يحاول أن يحتضنهما. وماهى إلا لحظات قليلة لفظ الأب فيها أنفاسـه الأخيرة، لتفوح من حولهم نسمة من نسمات الربيع الباردة، رائحتها مسك ظلت تفوح من حولهم؛ ليكسوا الحزن والألم وجوههم.

وتمر الأيام سريعًا، وبيد تملكتها رعشة خفيفة؛ لتظهر ما بداخلها من قلقٍ وخوفٍ. تتحسس الأم الطريق وسط الظلام تحتضن ولديها، وهى تبكي. وخيالات الماضي البعيد تترائى من أمام عينيها منذ أن خرجت تبحث عن الجنة المفقودة. وظلت تلهث خلف أشباحها حتى اختطفتها الذئاب. ففقدت جنتها، وفقدت ذاتها، وفقدت أسرتها. وأشارت بيدها إلى تلك الصورة الصغيرة ما بين طيات ملابسها. وأوصت ولديها بضرورة الذهاب إلى جديهما، فكم تشتاق إلى رؤيتهما قبل وفاتها حتى تطلب الصفح والغفران.

وكان لوقع المفاجأة في قلبي الصبيين إحساس آخر. في بيت الجد يجلس الصبيين حتى يلتقطا الأنفاس، ويسود الهدوء تتبعه العاصفة. وإذا بشيخ عجوز يتكىء على عصا من الخيرزان يقترب منهما، يتفحصهما بنظراته الثاقبة ثوان معدودة. يتعلثم لسانهما، ويسكت عن الكلام. وتدخل الجدة وقد انحنى ظهرها، وإذا بالصبيين ينهمرا في البكاء، فبكت الجدة لبكائهما. وأخرج أحدهما الصورة من بين طيات ملابسه. وما أن نظرت الجدة فيها حتى سالت العبرات.

لحظات عصيبة مرت عليهم كدهر طويل. وأخذا يسردا ما أخبرتهم به أمهما لتعود الأم من عالم الأموات منذ أن خرجت تبحث عن جنتها المفقودة. واتكىء كل من الجد والجدة على كتفي الصبيين في طريقهما

إلى الكـوخ بجانب بقايا المعدية. وبهدوء فتـح الصبي باب الكوخ وهو يقـول: أبـشري يا أمي واقتربـا منها، فـإذا بروحها قـد فاضتت فترحم عليها الجميع، وانهمروا في البكاء.

.

توأم القرية

يجلس على كرسيه الخشبي مرتديًا بدلته الرصاصية اللون، يضع على كتفه فوطة برتقالية اللون. وبجانبه دلو من البلاستيك بداخله فرشاة صغيرة. وقد رسم الزمان على وجهه خطوط وتجاعيد، يلبس على رأسه طاقيته الشبيكة البيضاء اللون. يرقب بعينيه تلك الحمامات التي تتلالأ جدرانها، وتلمع أرضيتها، وتفوح منها رائحة العطر.

اتخذ لنفسه من تلك الحمامات المتواجدة داخل محطة القطار عملًا له. فهو يعمل على نظافتها نهارًا، ويتخذها مسكنًا له في المساء. منذ أن فر هاربًا من قريته على جريمة قتل لم يرتكبها، بل كان الشاهد فيها _ جريمة قتل صديق عمره الوحيد_. ورغم أن القضاء قد أثبت براءته، لم يعترف أهل القتيل بحكمها. وعقدوا محكمتهم الخاصة، وأُصدر الحكم على صابر بالقتل.

كان صابـر وجابـر صديقين ربط حب حميـم بينهما منذ الصغر. لا ينفصـلا ولا يتفرقا إلا عند النوم، سـاعتها يعدان سـاعات نومهما حتى يتقابـلا مع شروق الشـمس؛ ليمضيـا يومًا جديدًا بـين حقليهما. ما بين الحرث والحصاد حتى أطلق عليهم أهل القرية بتوأم القرية.

نهـض صابـر من على الكرسـى واتجـه ناحية الحمام، وبيـده الدلو؛ ليملأه بالماء؛ ليعود بعدها ليبدأ عمله.

وبينـما هو على هـذا الحال انزلقـت قدماه، فاختـل توازنه، فيتمايل محـاولًا الإمسـاك بمقبـض الباب. فـإذا به يقـع عـلى الأرض، ينتابه ألم شديد. يعرف بعدها أن قدمه اليمنى قد كُسرت. دخل صابر المستشفى محملًا على كرسـيه الخشبي؛ ليرقد على السرير عاجزًا عن الحركة. يتأوه من شـدة الألم، يعاني من الوحدة والغربة التي عاشـها منذ أن هرب من بلدتـه في ليلة حالكة الظلام، يجرى بـين الزراعات، يتخبط طريقه قافزًا عبر الترع والمصارف ما بين الحقول غير مصدق لما يحدث.

ترك زوجته في القرية تعاني من ظلم أهل القرية. ومن دحروج الذى بدأ يراودها، ويرسـل إليها الهدايا والوعود. وعندما يأس دحروج منها اسـتدار إلى عدلي يحثه على الأخذ بثـأر أخيه جابر. وأن يبدأ البحث عن صابـر في كل مـكان. وأخذ دحروج يعبيء الصـدور ضد صابر وأخذا يبحثا عنه في كل مكان دون تعب أو ملل من حارة إلى أخرى ومن زقاق

إلى زقاق ومن قرية إلى أخرى. حتى يتخلص منه إلى الأبد، ويتزوج من زوجته التي أخذت على نفسها عهدًا بأن تنتظر عودة زوجها، وارتدت ثياب الحداد، وجلست أمام المدرسة تبتاع الحلوى لتلاميذ المدرسة؛ حتى تقتات ما يعينها على الحياة وسط نظرات العطف والشفقة من أهل القرية الذين لا يزالون غير مصدقين لما حدث؛ لإدراكهم بروابط الصداقة والمحبة والأخوة التي كانت تربط بين صابر وجابر منذ الصغر. فرُبَّ أخ لم تلده أمك.

وبعدما يأس كلًا من دحروج وعدلي في العثور على صابر. قررا العودة إلى القرية واتجها ناحية محطة السكة الحديدية، وركبا القطار.

وفجأة يتوقف القطار عن الحركة على غير عادته داخل محطة خورشيد. دقائق معدودة ويتحرك القطار، وتبدأ سرعته تزداد وتزداد وسط دهشة الركاب. وبدأ الخوف يسيطر عليهم وبدأت التساؤلات تدور، ونهض عدلي مسرعًا إلى دورة المياة يعاني من آلام شديدة في بطنه.

لاحظ الركاب أن القطار أخذ يغير من مساره مسرعًا متجهًا إلى خط التخزين داخل محطة القطار بمدينة كفر الدوار.

وما هي إلا ثوان قليلة يصطدم بعدها القطار بالحاجز الخرساني عند نهاية خط التخزين أمام المزلقان المغلق بكل بقوة، حيث يحتشد

حولـه المـارة في انتظار مـرور القطار كعادتـه. وارتطم القطـار بالحاجز ليجتثـه من الأرض، ليزحف أمام القطار الذي اتجه إلى ميدان الشـهداء داخل السوق الكبير. أخذ كل ما في طريقه، حتى استقر في النهاية داخل إحـدى المطاعـم عـلى ناصية الميـدان. ليعلـو بعدها الـصراخ والعويل، ويـسرع أهـالى كفـر الـدوار في ملحمـة إنسـانية ناحيـة الميـدان. الكل يسـاعد بما يستطيع عمله. فمنهم من يسـعف المصابين ومنهم من شمر عن سـاعده؛ ليتبرع بالدم. ومنهم من مزق ملابسـه؛ ليضمد بها جراح المصابين. وأخذ عدلي يبحث عن دحروج وسـط حطام عربات القطار ووسط القتلى، ثم اتجه ناحية المستشفى يبحث عنه بين المصابين. فوجده في الرمق الأخير يهلوس قائلًا:

سامحني يا صابر.. سامحنى يا عدلي.. سامحني يا جابر..

لقد أعماني الشـيطان في لحظة ضعـف مني، وجعلني أفعل ما فعلت وأقتل جابر. ثوانٍ قليلة ولفظ أنفاسـه الأخيرة وسط دهشة عدلي الذي أخذ العرق يتصبب من على جبينه من هول المفاجأة.

وبينـما هـو عـلى هذا الحال سـمع عـدلي صوت إحـدى الممرضات وهـي تهمـس لزميلاتها وعلامـات الحزن عـلى وجهها: لقد مـات صابر الصعيـدي. أخـذ الفضـول طريقـه إلى عـدلي وتحركت قدماه يتحسـس الخبر. واتجه ناحية السرير ورفع الغطاء من على وجهه، وتوقفت يداه عن

الحركـة، وعاد بذاكرته لعذابـات الماضي، وانفجر باكيًـا ينوح توأم أخيه الذي عاش طريدًا غريبًا على جريمة لم يرتكبها، هاربًا من تقاليد بالية.

يرقـد عـلى السرير وانكشـفت الغشـاوة مـن على قلبـه، وأخذت العبرات تمهد طريقها من عينيه لتتساقط على الأرض..

بعدهـا حـاول عدلي أن يجمع قـواه، وأخذ يجهـز الأوراق اللازمة لخروج جثتي صابر ودحروج من المستشفى.

وتـراص أهل القرية على جانبي الطريق في حالة ترقب وخشـوع، وأنظارهـم تتجـه ناحية الكوبري الخشـبي الممدود عـلى الترعة. وما إن اقتربت سيارة الإسعاف فإذا بزوجة صابر تشق الجموع التي احتشدت حول السيارة ناعية زوجها. ترجو من عدلي وأهل القرية أن تلبي وصية زوجهـا، وأن يدفن بجوار توأمه. هنا علـت الآهات لحظات معدودة؛ ليسود المكان من بعدها هدوء وخشوع للحظات.

وبعين دامعة ينظر إليها عدلي وهو يقول: سـامحيني وليسـامحني الله على غشـاوتي طول الأعوام التي مضت، وظلمي لكِ ولصابر ومطاردتي له على جريمة هو بريءٌ منها.. وليدفن صابر بجوار توأمه وفاءً مني لهما.

فامتزجـت دمـوع الحزن بدموع الوفاء بأعين أهـل القرية، وتعلوا الآهات مودعين ذلك الرجل العجوز.

الحائكة

ذات مساء عدت إلى الدار فلم أجد أمي.. أين أمي؟ انطلقت أبحث عنها، وقادتني قدماي إلى هناك.. إلى الجرن الكبير حيث الزينات والأنوار ونساء القرية يقرعن بأيديهن على الصينية النحاسية، وهن يرددن الأغاني فرحًا بيوم عرسها.. ولم أصدق عيني..

كانت أمي تجلس على كرسي وسط نساء القرية، ترتدي فستانًا أبيضًا تلمع فيه حبات الترتر تحت الأنوار.. تتمايل مع الأغاني ودقات الطبول. هل هذه أمي التي كانت ترتدي السواد من الثياب بالأمس القريب؟ اندفعت مهرولًا في اتجاهها.. تراجعت.. انزويت بعيدًا.

ذات مساء تبلدت مشاعر أبي، وأرسل لها ورقة طلاقها منه ناكرًا للجميل متجاهلًا تعبها وسهرها الليالي وهى تعمل على ماكينتها في حياكة ملابس نساء القرية، حتى تساعده على مصاريف الجامعة حتى تخرج منها وتزوج من زميلته وسافر..

وأنين أمي يتأجج داخل صدرها في صمت وسكون. ومرت الأعوام وزلزلات صراخها خامدة بداخلها تشفق عليّ من الحرمان، أنا اليتيم وأبي مازال حيًا.

ذات مساء حضر إلى الدار رجال ما لبثوا أن انصرفوا. ووسط ضغوط جدتي وافقت أمي على الزواج. أخذت تبحث بعينيها وسط الحضور لعلها تلمح طيفي أو تراني..

دقائق عصيبة عادت بها إلى ذكريات وعذابات الماضي القريب، فسحبت منها الابتسامة العريضة التي كانت مرسومة على شفتيها منذ قليل. وسبحت في بحور بلا شطآن تبحث عني..

فتوقفت حين رأتني وتجمدت ملامحها حينما رأت العبرات تتساقط من مقلتي على الأرض في صمت وسكون. ودارت برأسها الأفكار والهواجس، ونبض قلبها نبضات سريعة متلاحقة. فإذا بها تخرج من بحور الاحتمالات خوفًا عليّ. فوثبت من مكانها مهرولة ناحيتي تاركة خلفها الزينات والأنوار.

وفتحت ذراعيها، فأسرعت مهرولًا ناحيتها، وارتميت في أحضانها أسمع دقات قلبها، وهو يناديني وحملتني بين يديها.. منزوية بي بعيدًا عن ضوضاء المكان، وجلست على الكرسي وأدارت ماكينتها لحياكة ملابس نساء القرية.

(تمت)

الكاتب في سطور

»» حسن محمد برغوت

ـ من مواليد محافظة دمياط
ـ تخرج في كلية الآثار جامعة الفيوم
ـ شارك في كتاب «سيكولوجية المجانين» الصادر عن دار لمحة للنشر
ـ له العديد من المقالات على عدد من المنصات الإلكترونية المختلفة

حقيبة سفر

يقضي يومه بين النوم والسهر في البيت أمام حاسوبه وهاتفه. أو يخرج ليجلس مع أصدقائه على أحد الكافيهات القريبة من البيت.

فبعد عامين من تخرجه من الكلية، ولم يجد عملًا يناسبه رغم توافر الكثير من فرص العمل. ولكنه صار يتجاهل تلك الفرص بعد أن عمل في أكثر من مكان، ولم يجد التقدير الذي يستحقه.

بعد تفكير قرر أن يسافر للعمل في أحد فنادق شرم الشيخ. وحتى يستعد لتلك الخطوة، أخذ كورس إنجليزي؛ لينمي مستواه في اللغة. وبعد انتهائه، تواصل عبر البريد الإلكتروني مع فندق شهير، وأرسل سيرته الذاتية. تم الرد عليه بالقدوم لعمل مقابلة مع مسئولي التوظيف بالفندق. سعد جدًا لهذا الخبر. وبدأ يجهز نفسه للسفر.

اسمه سعيد وحياته ليست سعيدة كما ينبغي. ولكنه يحمد الله دومًا على كل نِعمة وهبه الله إياها. جلس مع أهله وأخبرهم بسفره. وافقوا

بعـد إلحاحـه حيث يـرون أن شرم الشـيخ تفصلـه بينها مسـافة بعيدة. ولذلك فمن الأفضل البحث عن عمل مؤقت بالقرب من البيت. أبدى حماسه للعمل في السياحة، وترك كفر الشيخ ليذهب لشرم الشيخ.

من الجيد أن الفندق الذي سـيعمل به يوفر أتوبيسًـا في موقف عبود بالقاهـرة، لسـفر العاملين الجدد والقدامى. قلبه ليـس مطمئنًا على هذه الخطوة رغم تمسكه بها، يحتاج للاستقرار في عمل. وقد سئم من إشفاق القريبين منه، وعدم قدرتهم على مسـاعدته لاسـيما وأنه عاطلًا منذ مدة ليست بالقليلة.

يريد أن يحترم شـهادته الجامعية التي تعب من أجل الحصول عليها، وتعـب أهله أيضًـا معه في مرحلة تعليمه. وحتـى الآن ما زالوا يحملون ثقـلًا على كاهلهـم، وهم يرونه يحاكـي ذاته، وكأنه فقـد عقله. فصارو يخشوا عليه من الاكتئاب والشعور بالفشل، وما يتعاقب عليه من طاقة سلبية، تزيده من تكاسله لا تقدمه.

وفي نفس الوقت، العمل سـيجعله يبتعد عن أحاديث أهله المباشرة والغير مباشرة بشأن جلوسه في البيت عاطلًا. فلعله يجد في ذلك الفندق العمل الذي يسـتقر به حتى يطمئن قلبه، ويستطيع عما قريب من خُطبة البنـت التـي يحبها، فقـد انتظرته كثـيرًا. ورفضت الكثير من العِرسـان

بدون مبررات واضحة حتى أصبح أهلها لا يفهمون سر رفضها سوى أن هناك أحدًا تحبه. ولكن متى سيأتي ليتقدم لابنتهم الكبرى؟ والتي قاربت من الرابعة والعشرين من عمرها.

في صراع دائم مع أفكاره. يأخذ القرار ويندم أو يشعر بأنه تسرع. وكان عليه أن لا يفعل ذلك وحتى لا يتمكن التردد والخوف منه يتجاهل ويظهر جانبًا من اللامبالاة تجاه ردود أفعاله. مردداً بأنه الوحيد من يتحمل عاقبة قرارته، كما يتحمل عاقبة دخوله لكلية لا جدوى منها سوى أنه أحب الدراسة بها. يؤمن سعيد بأن عليه التحرك والسعي، وأن العمل لن يأتي له وهو قابع في البيت .

بعدما تحرك الأتوبيس، وضع الهاند فري خاصته في أذنيه ليستمع لمجموعة من أغانيه المفضلة، محاولًا نسيان كل ما يشغله حتى يصل لشرم الشيخ.

الطريق طويل وهاتفه حتماً ستنفذ بطاريته، وسينعزل عن كل شيء. وتبقي له عتمة الطريق. يكره السفر الذي يستغرق وقتًا طويلًا ليلًا، ولكن ما بيده شيء. كان يجلس بجانبه شابًا يبدو أنه أصغر منه قليلًا، ولكنه لم يفتح معه حديثًا. فوجيء سعيد بنكزة على كتفه من الذي يجلس بجانبه، فأوقف المزيكا التي يسمعها وخلع الهاند فري.

ـ ماذا تريد؟

ـ نسيت أن أشتري زجاجة مياه، ورأيت معك زجاجة، فهل بإمكاني أن أشرب منها؟

ـ بالطبع.

هذا الموقف كان بمثابة بداية التعارف بين سعيد وأسامة، وقد دخلا في وصلة طويلة من الحديث لم تقطعها سوى صوت أحدهم بالأتوبيس.

إجهزوا يا شباب، لكي تحضروا حقائبكم وتنزلوا جميعًا للتفتيش.

للأسف لم يمر أسامة من التفتيش سالمًا. ولا يعلم أحد سببًا لذلك. فحقيبته آمنة، ولكن بطاقة هويته يبدو أنها من تسببت في رجوعه.

تحرك الأتوبيس وترك كل من لم يمروا من نقطة التفتيش الأمنية. عتمة الليل تغزو الطريق. لا شيء تراه سوى الظلمة الكاحلة على الجانبين. وسعيد ينتظر أول استراحة ليشحن بها هاتفه، ويذهب لدورة المياه. السائق قام بتشغيل فيلمًا مصريًا على شاشة صغيرة بالأتوبيس، وسعد الجميع لذلك، ولكن سرعان ما نزلوا لاستراحة .

بعد ذلك قرر سعيد أن يغمض عينيه في محاولة جادة منه بالنوم، رغم أنه يعرف أنه ينام بصعوبة في المواصلات ولكنه سيحاول. نام بالفعل ولكنه قلق مع أول مطب صناعي اصطدم به السائق.

الصداع ينتابه ويشعر بالجوع، والمياه التي بحوزته انتهت، وهاتفه هو الآخر فعلها ونفذت شحنته، وصار وحيدًا تمامًا. في هذه اللحظة تذكر كلمات، والديه وسبب عدم رغبتهم في سفره لشرم. ولكنه تماسك فهو لم يصل بعد .

حتى يرتاح في حياته ويستقر في عمل عليه بالتعب. وهذا ما يؤمن به سعيد. وهو مستعد لبذل أقصى ما لديه ليحقق طموحه الذي سقفه السماء. ومن ثم كان لزامًا عليه بترك غرفته وترك الكسل والرقود على ظهره أغلب الوقت وهاتفه في يده. فالأيام تمضي ولن تعود، وعمره يكبر لا يصغر، وهو في مكانه والعالم يتغير في كل ثانية وعليه بمواكبته. وأهله يريدون أن يفرحوا به ويزوجونه، فهم ليسوا دائمين له.

كل تلك الأفكار وغيرها تدور برأسه، ولا يعلم كيف يتخلص منها سوى بالنوم فهو وسيلة هروبه من عقله، ولا نوم بعد أن استيقظ. إذن فمرحبًا بالأفكار الطاغية والذى عليه بتذهيبها، ووضع أهداف واضحة يسير نحوها في الأيام القادمة.

صب تفكيره في الوظيفة التي سيتحصل عليها في الفندق، يتمني أن يعمل كموظف استقبال، فاللغة الإنجليزية لديه صارت قوية.

بعد ما يقرب من عشر ساعات وصل الأتوبيس في تمام السابعة صباحًا إلى المنطقة السكنية الخاصة بعمال الفندق. وهناك جمع مسئولي

الأمـن بطاقات الهوية من العاملين الجدد. وقاموا بتسـكينهم، ثم طلبوا منهم بعدم التأخر عن موعد الإنترفيو بالفندق. تم تقسيم كل غرفة على ثلاثة أشـخاص، لم يلتفت سـعيد لذلك. فكان في غاية التعب ويريد أن يسـتحم ويشحن هاتفه؛ ليطمئن أهله على وصوله سالمًا، ثم ينال قسطًا من النوم وبعدها يذهب للفندق.

أثنـاء مقابلتـه مـع مسـئول التوظيـف عـرف بـأن فرصـة العمل في الاسـتقبال سـتتطلب منـه إتقانـه للغـة أخـرى «الروسـية». وأغلـب الوظائف الموجودة لا تتناسب معه. إلى جانب أن الوظيفة التي أعجبته، وهي كمقدم طلبات سـتتطلب منه أن يحمل الخمر، ولا يريد العمل في الأمن أو في تنظيف الحدائق. هل بعد أخذه لقرار السـفر والتعب الذي لحق به إلى الآن سيعود لمجرد أن العمل لا يناسبه؟

أنهـى مقابلتـه وقد وافق على العمل بقسـم السرفيس، عاد للسـكن ليرتاح بقية اليوم ويبدأ في العمل من صباح الغد .

بداخلـه غـير راضٍ عـلى الوظيفة التي سـيعمل بها، ولكـن لا يريد العودة لأهله خائبًا فاشلًا، لن يعود حتمًا.

ولكنه لن يعمل بهذا الفندق من الأساس، وسيقضي هذا اليوم وغدًا يفرجهـا الله عليـه. ذهب وتوضيء وصلى الصلـوات التي فاتته، ودعى

الله بأن يقف بجانبه في شدته. اتصل سعيد بأحد أصحابه الذين يقيمون بالقاهرة والذى عمل مسبقًا بشرم الشيخ؛ ليحكى له ما حدث معه، ولحُسن حظه بأن صاحبه أخبره بوجود فرصة عمل جيدة له في القاهرة، وطلب منه الرجوع.

وعاتب سعيد على عدم اتصاله به منذ فترة، وإبلاغه بأنه في حاجة لعمل. هذا الخبر جعله في غاية السعادة، ولكن فرحته لم تدم طويلًا. عندما تذكر بأن شهادة التجنيد والميلاد وبقية أوراقه قد تركها مع مسئول التوظيف. الضيق يتملكه فكأن الفرحة ترفض التواجد بحياته. لا يعلم ماذا فعل ليصبح حاله بهذا السوء، ولكن بعد كل عسر يسر حتمًا سيفرح ولكن عليه بالصبر.

في المساء، اتصلت به أمه وأخبرها بأنه مرتاح في شرم، ولن يعود قبل ٢٣ يومًا، وسوف يتحصل على راتب لا بأس به. لا يكذب بقدر ما لا يريد أن يشغل أهله عليه. وبينما يتصفح في هاتفه على الإنترنت وجد فرصة عمل جيدة في محافظته، فابتسم وتعجب على هذه الفرص التي كثرت عندما سافر. اتصل برقم صاحب العمل، ولكنه تآسف له حيث لم يعد في حاجة لأحد.

في صباح اليوم التالي، جهز حقيبته وركب سعيد أتوبيس الفندق. وهناك استطاع أخذ كافة أوراقه واعتذرعن العمل. ولم يعارضه أحدًا على قراره. وسريعًا ذهب لمحطة الأتوبيس وحجز أتوبيسًا للقاهرة.

واتصـل بصاحبـه يخـبره بقدومه للإقامـة عنده عدة أيـام، حتى يجد مكانًـا بالقـرب من العمـل الذى جلبه لـه. لابد أن يخبر أهلـه بما فعل، ولكنه قرر الاتصال بهم عندما يصل القاهرة. فوجىء سـعيد بأن الذى يجلس بجانبه هو أسـامة، وكانت تلك صدفة غريبة بالنسبة له.. حكى له أسـامة عن ما حدث معه، وأنه كان مجرد اشـتباه لا أكثر، وقد ركب أتوبيسًا آخرًا ودخل شرم ولكن الفندق لم يقبله للعمل به. وعندما ذهب لفندقٍ آخرٍ تم رفضه أيضًا؛ لأنه كان يريد العمل بقسم الاستقبال، وهو لا يستطيع التحدث سوى بالإنجليزية وهذا كان سبب رفضه، ولذلك عاد للبحث عن عمل في القاهرة، وسـيقيم عنـد أحد أصدقائه. بعد ما سـمعه سعيد من أسامة ازداد التفاؤل بداخله لإدراكه بأنه ليس الوحيد من لم تبتسم لهم الحياة. ومن ثم فعليه بعدم اليأس والاستمرار في السعى والتيقن بأنه سيسعد يومًا.

الكاتب في سطور

»» أحمد بسيوني محمد

- مدرس لغة إنجليزية
- صدر له كتاب «البداية لتعليم اللغة الإنجليزية» عن دار بداية للنشر
- صدر له كتاب «البداية لتعليم الرسم للأطفال» عن دار بداية للنشر
- شارك في المجموعة القصصية «لحظات قبل موتها» الصادرة عن دار ملتقى المعرفة

عطلة نصف العام

اليـوم هو بداية عطلـة نصف العـام وتحت إلحاح الأطفـال الصغار والشكوى من عناء المذاكرة، استجاب الأب لطلب أبنائه لزيارة حديقة الحيـوان. وأخذ زوجته وأولاده ومسـتلزمات اليوم مـن طعام وشراب وفاكهةٍ. إلى جانب أدوات الترفيه مثل الكورة والكوتشينة والشطرنجٍ.

ووصل الأب لباب الحديقة، فاكتشف أن إدارة الحديقة قد رفعت رسـوم الدخول إلى جنيهين للفرد الواحد مرة واحدة، فاستجاب الأب مضطرًا، ودفع اثنتا عشرة جنيهًا كاملة رسم دخول الحديقة.

وفي أول لقـاء مع حديقة الحيوان ذهبـوا إلى حديقة البط. فوجدوا بركـة البـط جافـة وخاليـة مـن البط إلا مـن بعـض الريـش المتناثر هنا وهناك.. صُدم الأب، يا إلهي!

أين البط الجميل ذو الريش الملون؟؟

لقد كان منظره يبعث في النفس السرور. كان منظره وهو يغطس في المـاء، ويظهر مرة أخرى، منتفش الريش فرحًا بالماء. بطة تعوم وخلفها بطيطـات صغيرات ذو ريـش زغبى أصفر يتعلموا السـباحة.. لا شيء من ذلك.

ذهـب الأب إلى بيـت الفيـل الإفريقي الضخم فلم يجـده، ووجدوا مكانه نعامة.. يا إلهي!

هل هذا تعبير بسيط عما آل إليه الحال في هذا العصر، الفيل مكانه نعامة؟.

وتساءل الأطفال في غرابة أين الفيل الذى كانوا يركبونه، ويأخذون الصور التذكارية معه، وهم يطعمونه الجزر ويحييهم برفع زلومته؟

ذهبت الأسرة إلى بيت الزرافة، فلم يجدوها، ولم يجدوا حتى الحارس الذى اعتادوا على رؤيته، وهالهم ما رأوا، فقد وجدوا شاهد قبر مكتوب عليه:

«هنا قبر المغفور لها الزرافة الإفريقية. موطنها وسط وغرب إفريقيا، تمـت الوفـاة في الثاني عشر مـن أبريل عام ٢٠٠١ ميلاديـة الموافق الرابع عشر من ربيع الثانى ٤٢٢ هجرية».

استسلم الأب لما آل إليه وضع الزرافة. واتجه مباشرة إلى منزل وحيد القـرن، فوجد مكانه جملًا أصابه الجـرب ومنظره بائس. فظن أنه الجمل الميز ذو السـنامين، ولكنه وجـده جملًا عاديًّا، نأكل لحمـه كثيراً، ونصنع من لحمـه الكفتة، ومنظره مألوف في الأرياف. وكنا ونحن صغار نركبه ونضربه بالعصا، وليس به أي ميزة عن أي حيوان خارج حديقة الحيوان.

المهم سنكمل اليوم لقد دفعنا رسوم جنيهان للفرد. ذهب الأب مباشرة -وحتى لا يصاب الأبناء بالإحباط- إلى أقفاص القرود.

إن منظرها وهى تقفز هنا وهناك يضحك الأطفال. فوجد الأقفاص خالية إلا من قردٍ بائسٍ أو اثنين يتسولون الطعام من الزائرين. فهرع مسرعًا إلى جبلاية القرود، فوجد حالها أسوأ من المباني العشوائية. ووجد القرود يحكوا جلدهم ويعانون من أسوأ الأمراض الجلدية، ويبحثون في التراب عن بعض حبات الفول السودانى التي يقذف بها الأطفال الصغار من وراء ظهور آبائهم. وفزع الأب عندما رأى أحد أبنائه وهو يقذف بإصبع من الموز لقردٍ جائعٍ فتكالب عليه باقى القرود وأكلوه بقشره.

أسرع الأب إلى بيت الأسد لعله يجد شيئًا مختلفًا عند ملك الغابة. وعندما اقترب الأب من بيت الأسد استرق السمع؛ لعله يسمع زئير الأسد الذى كان يهز أرجاء حديقة الحيوان، ويبعث الرعب في نفوس الكبار قبل الصغار. ولكن..

ياللهول! إن الاسود يرقدون في أقفاصهم لا يستطيعون الحراك، وسلسلة ظهورهم بارزة من الهزال والضعف. وحاول الأطفال مداعبة الأسود من بعيد واستفزازهم؛ لعلهم يقفزون في وحشيتهم المعتادة، ولكن الأطفال فوجئوا أن الأسود آثروا السلامة ودخلوا مضاجعهم؛ لينام.

فسأل الأب الحارس الذي كان منظره ليس أفضل من الأسود. سأله عن سر ضعف الأسود. فأخبره الحارس وهو يهمس في أذنه أن السر في تناول الأسود للحوم المجمدة ولحوم الحمير كبيرة السن. طلب

الأطفال أخذ الصور التذكارية بجوار الأسـد فاعتذر الحارس. وتطوع بحمـل الأطفـال فوق كتفـه ليأخذوا الصـور وهم يمتطونـه؛ طمعًا في بعض القروش يقذف بها الأب إليه.

فكر الرجل في الذهاب إلى بيت الضبع. وهل هناك بديل للسبع إلا الضبع؟

ذهب الرجل إلى قفص كبير مكتوب عليه بيت الضبع، موطنه أمريكا اللاتينيـة. وانتظر الرجـل كثيرًا مع أطفاله لعل الضبع يخرج من مخدعه. وبعد أن اسـتهلكت الأسرة كل ما لديهم من الترمس والفشـار أملًا في خروج الضبع، خرج إليهم كلب صغير ينهق بصوت عالٍ. فظن الأب أن الكلب لابد أن تسـلل إلى بيت الضبع في غفلة من الحارس من فتحة في القفـص. ولكن أخبره رجل عجوز من مرتادي الحديقة الإسـبوعي أن الضبع قد مات بسكتة قلبية، ولحقت به زوجته، وأن الكلب قد أنقذ الموقف بعد إلحاح الزوار.

طلـب الأولاد رؤيـة الحـمار الوحـشي والتقـاط الصـور التذكاريـة بجـواره. فكانـت مفاجأة من العيـار الثقيل أن الحـمار الوحشي موجود بالفعـل، لكنـه يكاد يكون أكثر بؤسًـا من الحـمار البلدى، حتـى ألوانه الأبيض والأسـود أصبحـت باهتة، ويعـاني من الجرب الـذى يبدو أنه انتقل إليه من أقفاص القرود، كما انتقل إلى غيره من الحيوانات.

وجـد الأب في الناحية الأخرى لافتة تشـير إلى الماعـز الجبلي. وكان الابـن الأصغر قد ادخر بعض لقيـمات تبقين من و جبة الغداء؛ لإطعام

الماعز الجبلي. وهرع الابن سعيدًا ليستمتع بإطعام الماعز الجبلي، فوجد القليل منه يقف أعلى تلة في البيئة الجبلية الصناعية التي أُعدت لهم، وقد أصابه الاكتئاب وقرونه مكسورة.

هرع الأب إلى الطاووس، فوجد الطاووس واقفًا مزهوًا ببعض ريشات تبقين على جسده وهو ينتفض من البرد.

يا إلهي! إن معظم أقفاص الحيوانات شواهد قبور.

هنا يرقد النمر الهندي.. موطنه شمال الهند هنا.. يرقد الفيل الهندي وموطنه جنوب الهند وسيريلاكا وتايلاند.. هنا يرقد وحيد القرن.. هنا يرقد الدب القطبي هنا يرقد.. هنا يرقد..هنا يرقد..

مر الرجل على أقفاص الطيور الملونة والببغاوات فوجدها خالية. ووجد العصافير العادية التي تسكن الأشجار تخرج وتدخل منها، وبعضها اتخذ أعشاشًا بداخلها.

مر على قفص كبير فوجد لافتة مكتوب عليها النسر الأمريكي. وجده فوق ربوة عالية صنعها مهندس ديكور لتحاكي بيئته الطبيعية. ووجده واقفًا في تكبر وكبرياء وأمامه الطعام والشراب متوفر بكثرة على غير العادة.

ووسط هذا الكابوس وتساؤلات الأطفال وذهول الزوجة، وجد رجلًا يضحك فنظر إليه، فأشار الرجل ناحية لافتة مكتوب عليها بيت فرس النهر..

يا إلهي! إنه سيد قشطة!

رؤيته ستخفف من وطئة الموقف..

ذهبت الأسرة مسرعة إلى فرس النهر فلم يجدوا شيئًا. وأخبرهم الحارس أنه غاطس في الماء وسيظهر حالًا.. طال انتظار الأسرة ومعهم بعض الزوار حتى وقت العصر، ولم يظهر فرس النهر. والحارس يعدهم بظهوره وهو يحمل معه بعض أعواد البرسيم في محاولة لإغرائه بالظهور.

والأولاد ينتظرون وفجأة هلل الجميع.. لقد ظهر فرس النهر..آه ليته لم يظهر لقد بدا شاحبًا عابسًا مكفهر الوجه نحيلًا. وسأل الرجل الحارس عن الحالة المزرية التي بدا عليها فرس النهر. فأخبره أن فرس النهر يعاني من سوء التغذية، ومريض منذ فترة، ويتناول منذ فترة بعض الأدوية التي تبرع بها أهل الخير من العيادات البيطرية القريبة من حديقة الحيوان.

اقترحت الابنة الكبرى الذهاب إلى كلب البحر، وذكرت أبيها بمداعبتهم له منذ سنوات في آخر زيارة لحديقة الحيوان.

فراقت الفكرة للأب، وذهب مباشرة إلى كلب البحر؛ ليصلح ما أفسده فرس النهر. ذهب الجميع إلى البركة التي يسكنها كلب البحر. فوجدوها مليئة بالمياه من بعيد فاستبشروا خيرا، وهرعوا ناحية البركة والحارس واقفًا يفرك ذقنه في حيرة وينظر ساهمًا..

هذه المرة سأله الاب وهو غاضب سؤالًا مباشرًا أين كلب البحر؟ أين ذهب؟.

فأجابه الحارس في حزنٍ، أن كلب البحر أصيب -بهستيريا غريبة- فهو لا يسمع كلام الحارس ولا يطيعه، يرمي له الأسماك يمينًا فيتجه يسارًا، ويتظاهر بأنه يأكل الأسماك برغم عدم وجود شيء، يترك الماء دائمًا حتى تشقق جلده، وكأنه خارجًا من شواية كهربائية ينتظر الموت بين ساعة وأخرى..

إذن لا مناص من الذهاب إلى بحيرة البجع الجميلة وستعوض الأولاد، وسيطعمون البجع السمك ويأخذون الصور التذكارية الجميلة.

آاااه.. صدمة جديدة وليست الأخيرة جفت بحيرة البجع، واختفت الأسماك، ولا وجود للبجع إلا في صورة قديمة معلقة على كازينو قديم بجوار البركة كان يسمى على اسمها كازينو البجعة، وديكورها الجميل أطلال أطلال.

ذهب الأب المسكين إلى مدير الحديقة. وما إن دخل مكتبه حتى قام المدير مسرعًا بإخفاء أقراص من الطعمية وقطعة من الجبن القديمة ورغيف جاف من الخبز..

تحدث الرجل مع مدير الحديقة وحكى له كل ما رآه. اقترح عليه أن يجعل حديقة الحيوان متحفًا مفتوحًا؛ لأن كل الحيوانات قد ماتت.

ورد عليه مدير الحديقة ردًا مؤلمًا وحقيقيًا. لقد تم غلق المتحف ومصادرة كل ما فيه؛ لضعف ميزانية الحديقة. وأنه نفسه لم يتقاض راتبه منذ عدة أشهر، وأن القائمين على إطعام الحيوانات يشركونه في أحيان

كثيرة في طعام الحيوانات الذي يصلح للإنسان. تذكر الرجل قبل خروجه «صغير الحصان» وهو نوع فريد من الخيل. لا يزيد ارتفاعه عن متر تقريبًا، وسيركبه الصغار ويأخذون معه الصور التذكارية. ولكن الحارس اعتذر لهم عن اختفاء هذا النوع وأنه قد انقرض. ومن فرط حرجه عرض على الرجل أن يركب الأطفال حمار يجلس به أحد الأشخاص خارج الحديقة بجوار باب الحديقة الكبير..

وشكره الرجل..

خرج الرجل من الحديقة وهو يفكر..

هذا حال الحيوانات في الحديقة، فكيف بحال ملايين الناس خارج الحديقة. عاد الأب مسرعًا إلى بيته وهو يقلب كفًا بكف..

وصل الرجل مع أولاده إلى منزله، وأدار التليفزيون على أحد القنوات المتخصصة في حياة الحيوان، وأخذ يشاهدها هو وأولاده، وهم يقضمون الجزر والخيار الذي أعدوه لإطعام الحيوانات، والتسلية معهم بينما تجهز زوجته وجبة العشاء..

«أرب ساخر»

.

الكاتب في سطور

»» أنيس رياض لطف الله

- عضو نادى الأدب بقصر ثقافة الفيوم
- وله العديد من المؤلفات في القصة و الرواية، ولم ينشر منها شيئًا حتى الآن لعدم إتاحة الفرصة.
- من مواليد محافظة الفيوم، درس في كلية التجارة جامعة عين شمس، وعمل في مجال الرقابة والتفتيش، وحافظ دائمًا على عمله المهني متوازيًا مع العمل الفكري والثقافي.
- اهتم بالقراءة ونشأ وتربى على مؤلفات نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وأنيس منصور ويوسف إدريس.

فاقد الذاكرة .. يتذكر!

فقد ذاكرته وهويَّته واسمه.

اتخذ لنفسه محلًا للإقامة في أطراف المدينة. وهو عبارة عن عشة من الخشب والصفيح، تتوسطها من الجهة البحرية نافذة صغيرة تطل على المزارع في نهاية العمارات. وتحتوي على أدوات بدائية كأنها من العصر الحجري.

كان الصبيان والبنات من أهل الحي والأحياء المجاورة في بداية معرفتهم به يهابونه ويخافونه ويرتعدون لمجرد رؤياه.

عملاق.. طويل.. عريض.. أطلق العنان للحيته وشعره وشاربه الذي يقف عليه صقر.

أصفر الوجه ذابل السحنة.. تائه النظرات، جاحظ العينين اللتين غالبًا ما تكونا حمراوين ولا تركزان على شيء.

أمـا جلبابـه فقـد تراهـن الأولاد على تحديـد لونه الأصلي، فلـم يَفُز أحدهم بالرهان؛ لكثرة الأوساخ المتراكمة عليه.

ومع مرور الأيام أحبه الأولاد وألفوه، وأصبحوا أصدقاء حميمين له.

ولذلـك فقـد اتفقوا عـلى العطف عليه، والإحسـان إليه.. فراحوا يفرقـون عليه ما لـذ وطاب من صنـوف الطعام عندما يحـل موعد كل وجبة. وكانوا يتسابقون على ذلك.

ومـن جهة الآباء والأمهات فكانوا يسـعدون بذلك جدًا، ويباركوه ويشـجعون الأولاد والبنات عـلى تقديم المزيد. حتـى انطبق عليه المثل الذي يقول «للشحات نصف البلد».

ومن كثرة خيرات الله التي تنهال عليه، اضطر أن يقوم بإطعام قطط وكلاب الحي.

وفي نهاية الأكل يشـكر الرب «رازق الدودة في الحجر»، ويُقَبّل يديه ويرفعهما إلى فوق، ويدعو للأولاد في صمت..

اعتادوا ممارسـة رياضتهم المفضلة في قيادة وسباق الدرّاجات بالقرب منـه. ممـا أتـاح لهـم الفرصـة في مراقبته، وهـو داخـل العشـة في الذهاب والإياب، فكان فمه الكبير الواسع لا يخلو من الطعام والمضغ وكأنه يجتر.

الـشيء الوحيـد الذي كان يسـبب له حرجًـا بالغًا ويـندي له جبينه هومراقبة الأولاد له عند قضاء حاجته خلف العشة.

يـا له من عملاق عجوز، مخيف، مرعب! وسـبحان الله الذي حبب فيه الأطفال.

ولـولا ترهـل عضلاته وإعيائـه الواضح على قسـمات وجهه، لكان بمقدوره أن يحرك إحدى العمارات المجاورة بسكانها من مكانها.

اقـترح بعضهـم عمـل مفاجأة لعم (صابـر) كما يسـمونه. حيث أن أحدًا لم يعرف اسمه الحقيقي حتى يومنا هذا.

وهذه المفاجأة المقترحة هي المسـاهمة في شراء كسـوة له؛ نظرًا لسوء الحالـة التي وصـل إليها هندامه. وسرعـان ما وصلت هـذة الفكرة إلى الآبـاء فلاقـت تأييدًا جماعيًا منهم، ورحبوا بها بشـدة؛ مشـجعين بنيهم وبناتهم على الاستمرار في عمل الخير والعطف والإحسان على المساكين والفقراء وذوى الحاجة..

وفعلًا تم التنفيذ بمعرفة لجنة مكونة من بعض الأبناء والآباء.

وقبـل تقديـم الهديـة إلى الرجل طرح أحـد الأولاد سـؤالًا وجيهًا: كيـف يمكن لعم صابر ارتداء الملابس الجديدة النظيفة وهو يحمل فوق جلدة هذا الكم الهائل من الأتربة والقذارة؟

والحق أن هذا السـؤال تسبب في خلق مشكلة جديدة في نظر أطفال في مثل سنهم فصاحوا جميعًا في صوت واحد:

لابد من الاستحمام.. لابد من الاستحمام.

وانتقلت هذه الفكرة أيضًا بسرعة البرق إلى الآباء، ومنهم عم (خليل) البواب الرجل الصعيدي الشهم الذي رحب بالفكرة، وتعهد بتنفيذها بطريقته الخاصة. بدأ عم (خليل) في التنفيذ، وإمعانًا في أداء مهمته على أكمل وجه، وإرضاءً لضميره وشهامته قرر أن يقص للرجل شعره ويحلق له ذقنه ويشذب شاربه..

وعلى الفور تم استدعاء الأسطى (خميس) الحلاق الذي أتى متأبطًا حقيبته التي عفى عليها الزمن. وتوجه بصحبة فريق من الأطفال إلى عشة عم (صابر). وما أن لمحهم حتى ارتجف بدنه الضخم، وبدا شبح ابتسامة على شفتيه، مما يوحى بأنه أدرك الغرض من الزيارة.

قام الأسطى (خميس) بأداء دوره بهمة ونشاط لفت أنظار الحاضرين. فأُعجب به الأطفال أيما إعجاب، ومنحوه أجرًا سخيًا. انصرف على أسره مسرورًا مبتسمًا بعد أن ختم عمله. وكان لايزال يتحسس ذقن عم (صابر) للتأكد من نعومتها، بكلمة «نعيمًا»، ثم رددها من بعده الأطفال، أما عم (خليل) فقد قال له:

نعيمًا يا عريس!

وغمز بعينه العمشاء للأسطى (خميس) أن يسبقه إلى المكان المتفق عليه. وهو عمارة تحت التشطيب يعمل بها عم (خليل) وزوجته، وهي ليست بعيدة عن عشة عم (صابر).

وفي تلك اللحظة، أتى أحد الصبية ومعه أدوات الحمام اللازمة. وتوجه الجميع إلى العمارة. وكانت زوجة عم خليل قد قامت بدورها هي الأخرى على ما يرام، فأحضرت (بستلة) كبيرة مملوءة بالماء المغلي، ووضعتها في الحمام (مشروع الحمام) بالإضافة إلى الأدوات اللازمة. وارتسمت فرحة غير عادية على قسمات عم (صابر) وهم يأخذونه إلى الحمام في موكبٍ مدهشٍ.

وكان يضحك ويقهقه كما لم يضحك في حياته من قبل، وكانت السعادة (تنط) من عينيه. ذلك دون أن ينطق بكلمة واحدة.

ألبسوه ملابسه الجديدة وسط زغاريد بعض النسوة اللاتي حضرن خصيصًا للفرجة عليه. بينما الأولاد يصفقون ويقفزون إلى أعلى في سعادة غامرة.

مشط له الأسطى (خميس) شعره وشاربه، ولم يبخل عليه ببعض قطرات من قارورة طيب عتيقة بحث عنها في حقيبته حتى وجدها بعد عناء. فبدا الرجل وكأنه عريسًا (بحق وحقيقي).

زفّوه حتى باب العشة. وكان الظلام قد أوشك، فأضاءت المساكن أنوارها. وشاهد الآباء والأمهات والإخوة والأخوات الموكب من الشرفات والنوافذ فاكتملت فرحتهم وسعادتهم..

ومن قبيل المزاح نزل أحد الآباء، ولحق بالموكب على باب العشة، واقترب منه وشرع في عمل (حديث صحفي) معه. لعل وعسى يكشف عن شيء من غموضه وسبب صمته الرهيب، سأله:

متى وأين كان آخر حمّام لك يا عم صابر؟

وجاءت الإجابة بالصمت ونظرات الدهشة..

كرر السؤال مرة ثانية بنبرة استعطاف..

متى وأين كان آخر حمّام لك يا عم صابر؟

وفي ذهول ودهشة الجميع.. خرج الرجل من صمته.

ونطق لأول مرة منذ سنوات.. قال بصوتٍ رخيمٍ

من أين أتيتم باسم (صابر) الذي تنادوني به؟

وعندما وصل ذهول الواقفين إلى قمته، ولم يحصل على إجابة سؤاله، أكد وهو يضغط على الحروف:

أنا اسمى (هيبة الفالح تيجاني) من أعيان محافظة الفيوم. وكنت عضوًا بمجلس الشعب عن إحدى دوائرها في يوم من الأيام.

ولاحظ الجميع أنه كان يتكلم بلغةٍ سليمةٍ. ولكنه كان يصمت بين الكلمة والأخرى بعض الوقت..

وكرر له السؤال للمرة الثالثة:

متى وأين كان آخر حمّام لك يا عم صا.. هيبة؟

كان آخر حمام لي بقصر والدي شيخ العرب (الفالح تيجاني) بإحدى قرى الفيوم ليلة زفافي.

فانتبه الحاضرون أكثر وكأنهم في حلم..

ومتى كان ذلك؟ أين تزوجت؟

فأجاب بحسرةٍ بدت واضحة على قسماته:

للأسف لم يتم الزواج.. أخذوها مني.. خطفوها مني..

وبصوتٍ واحدٍ سألوه:

من هم يا عم هيبة؟

علا صوته وتشنج:

أولاد الحرام.. الله يخرب بيوتهم مثلما خربوا بيتي، منهم لله.

وازداد تشنجه عندما سأله أحد الأطفال:

وماذا كان اسم العروسة يا عم هيبة؟

لم يرد عليه وعاد إلى صمته.. وسار حتى اقترب من عشته فتركوه، وعادوا أدراجهم والدهشة لم تفارقهم..

في صباح اليوم التالي استيقظ الأطفال في ساعة مبكرة. وكانت فرحتهم لا تُقدّر.. لأن عم (هيبة) تكلم وسوف يتكلم معهم.. سوف يرونه في ملابسه الجديدة الزاهية الألوان ونعله الجديد.. فالكل على موعد معه..

إن الرجل بلا شك سوف يفرح بهم أيضًا، ولن يعد يخجل منهم أبدًا بعد اليوم.

توجهوا إلى عشته.. لم يجدونه قابعًا أمامهم كالمعتاد.

تساءلوا: أين ذهب؟

لابد أنه يقضي حاجته خلف العشة.. انتظروا قليلًا فلم يعُد.. بحثوا عنه حول العشة فلم يعثروا له على أثرٍ.

ليس من عادته أن يظل نائمًا حتى هذه الساعة.

وأخذت فرحتهم وسعادتهم تهرب من وجوههم تدريجيًا.

لقد بدأوا يشعرون بخسارة فادحة لم تصادفهم من قبل

وخيم الحزن على الحي بأجمعه..

وظلـوا يبحثون عن الرجل ثلاثة أيام بلياليهم، ولم يعثروا له على أثر حتى اليوم..

أين البط الجميل ذو الريش الملون؟؟

الكاتب في سطور

»» محمد عبيد

- من مواليد محافظة بني سويف
- يعمل كمخرج سينمائي

قهوة إليسيا

وذلـك الصـوت المتهالـك الصادر من جهـاز الراديـو بالقرب منه. توجد إحدى الطاولات القديمة الطراز وتتصدر المشهد من أعلى.

هذه الطاولة برطمانات من مسـاحيق القهوة بأشـكال مختلفة. وفي الخلـف توجد تلك الأريكة ذات اللون الباهت التي يجلس في منتصفها ذلـك الرجل الذي يشرف على سـن التسـعين عامًا، يرتـدي نظارة نظر من الخمسينات. ويتوسط أسفل ذقنه بعض الشعيرات التي أغفل عنها أثنـاء الحلاقة، ليبدأ في رفع يده في بطءٍ ثم يقوم بجلب أحد البرطمانات ليبدأ باستنشـاق االقهوة. ثـم يتجه بنظره إلى الأمـام للحظات، ثم يبدأ بغـرس يـده مسـتغرقًا مسـتخدمًا إصبعـه الخنـصر؛ ليتذوق مسـحوق القهوة، لتبدأ علامات السعاده التحكم في ملامح وجهه المترهلة.

ليبدأ ملاحظة وجودي في المكان، يتجه بنظره إليّ محدقًا في محاولة معرفتي، ثم يبتسم. وفي صوتٍ متهالكٍ يصعب فهمه من حشرجة الصوت: لن تفهم ما أفعله، لكن ما عساك أن تفهم مايفعله رجل في عمري.

فجميع الأفعال نتيجة من قصة تحمل خلفها علامات استفهام وأشياء يصعب على المرء تصديقها أو تخيلها. نظرت إليه في دهشة محدثًا نفسي عن أمر تذوق القهوة قبل استخدامها، لصعوبة التفريق بين مساحيق القهوة، ماذا في الأمر؟.

ابتسمت وبصوت هادئ مواسيًا لحاله -أدام الله في عمرك ومنحك العافية- ليتجه بنظره مرة أخرى إلى مصدر بعض ضحكاته.

لم أكترث للقهوه في بداية عمري. لكنها الآن أصبحت كل ماتبقى لي من ذكريات تجتاح وجداني؛ لتصيب عيني بحوائط من الدموع الهائلة، مستمرًا أنا بالنظر إليه في دهشة بالغة؛ ليبدأ بهز رأسه ولتكترث بالأمر.

يمكنني أن أسرد لك القصة حتى يأتي حفيدي وائل، هززت رأسي مشيرًا بالموافقة ليبدأ بسرد القصة.

كعادتي الدائمة أذهب إلى «جروبي» في الساعة الرابعة عصرًا؛ لأتناول «لتروبس بيتر» هو أحد أطباق الآيس كريم الشهيرة. في ذلك الوقت أثناء دخولي شعرت بطاقة غير اعتيادية في المكان، تنتج عن أحد

الجالسين. جلست على طاولتي المعتادة حتى بدأت البحث عن مصدر هذه الطاقة والروح الغريبة. لأجد تلك الفتاة مصدرًا هذه الطاقة، فتاة في عقد العشرين بعينيها الزرقاوتين، وشعرها المصفف على شكل ذيل حصان، وبشرتها الناصعة، وقوامها الرشيق تجلس بالقرب مني؛ لتبدأ في تمعن المكان، وبتحريك عينيها بخفة بالغة، ثم تبدأ برفع يدها وتحريك أصابعها النحيلة في تناغم شديد؛ ليأتي مهرولًا أحد الجرسونات، تبتسم ابتسامة خافتة، وتبدأ بتحريك شفتيها في عذوبة رائعة؛ لتطلب فنجانًا من القهوة.

يسرع الجرسون لجلب القهوة في سرعة بالغة حتى ينال أحد ابتساماتها مجددًا، لتبدأ بمكافأته بأحد ابتساماتها على سرعة استجابته لطلبها. تبدأ برفع فنجان القهوة بالقرب من أنفها لتستنشق رائحته، ثم تتجه بنظرها إلى الأمام، وكأنها تحاول العثور على شيء ما.

سرعان ما تبدأ بالغوص بإصبعها الخنصر في فنجان القهوة، ثم تضعه في فمها. يمكن أن يكون المشهد مزعجًا للبعض، ولكنه في حقيقة الأمر هو أعظم مشاهد حياتي، وفي اعتقادي أنه ليس من المنصف سرد المشهد لنكمل، لتبدأ بعد ذلك باستدعاء الجرسون، ثم تقوم بإخراج أحد الأكياس ذهبية اللون من حقيبة يدها؛ لياخذها الجرسون وتبدأ

بإعطائـه بعض التعليمات، ليذهب الجرسـون مسرعًا مع فنجان القهوة والكيـس الذهبـي، ثم يـأتي بعد دقائق يحمـل الكيس الذهبـي وفنجان قهـوة آخر لتعيـد مافعلته مرة أخرى. ولكن قد وضح أنها استحسـنت القهوة، وأيضًا تبدأ في ملاحظة مراقبتي إليها لتتجه بنظرها إليّ، لأتظاهر بالتمعن في شيء آخر.

وبعـد لحظـات الكر والفر تتجـه بنظرها إليّ، تخرج مـن حقيبة يدها أحـد السـجائر الرفيعة وتبحـث عن شيء مـا. ولكنها لم تجده لتسـتمر بالنظر إليّ، وتبدأ بالحديث إليّ: أيمكنني أن أشعل سيجارتي؟

أذهب إليها مسرعًا؛ لأقوم بإشـعال السـيجارة، ثـم تتجه بنظرها مرة أخرى إليّ محدثاني بلغتها العربية الرديئة: أنصحك بعدم تناول القهوة هنا.

لأبتسـم ابتسـامة خافتـة أحـاول بهـا كبت سـعادتي للتقـرب منها. وبصـوتٍ خافـتٍ هـل هـي سـيئة إلى هـذا الحـد لتقـوم بإطـلاق أحد ضحكاتها التي ترسلك مباشرة إلى الجنة؟

ليست سيئة كثيرًا.

اسـتمر الابتسـامات عسـى أن تدعـوني للجلوس معهـا خصوصًا ونحـن الوحيدين اللذين نجلس بمفردنا، وبالفعل كأنها تقرأ أفكاري، تعرض علي أن أشاركها الجلوس. لم أتردد للحظة، وسرعان ماجلست

معها، حتى تبدأ باستدعاء الجرسون مرة أخرى، وتعطيه ذلك الكيس وتطلب منه أن يحضر فنجانًا آخرًا من القهوة، لينظر إليها الجرسون منتظرًا لأخبره عن كيف تكون قهوتي ليساعدني على عدم التمعن بها.

أخبرت الجرسون عن قهوتي، ثم ذهب لتبدأ هي بالاعتذار عن طلبها من الجرسون في إحضار فنجان قهوة إلي.

لكنها أرادت فقط أن أتذوق البن الخاص بها، وأنه يمكنني أن أطلب ما شئت محدثًا نفسي في ذلك الوقت: لم أكترث إلى القهوة، ولا تروق لي مطلقًا.

هززت رأسي مشيرًا بالموافقة، وتفهم الموقف، ثم قمت بسؤالها عن الآيس كريم، لتجيب: بأنه لا يروق إليها مطلقًا.

شردت بتفكيري في كيف لا ينال الآيس كريم على إعجابها. وهو مثلها تمامًا يشتاق الإنسان لما هو بعيدًا عنه وهو غريب عنه. هي تشتاق إلى القهوة ذات الطعم المر وأنا أشتاق إلى الآيس كريم. ابتسمت معلنًا خروجي من حالة الصمت التي أنا عليها لأستأنف حديثي مرة أخرى.

- سليم رستم.

- لتبتسم، إليسيا رايت.

ليأتي الجرسون مع فنجان القهوة، ولتبدأ هي الحديث عن القهوة وعن معرفتها إن كانت جيدة أم لا.

ثـم تطرقنا بالحديث عـن بلدها لندن والقاهرة، وعـن الفن والجمال والموضة حتى أنهينا القهوة وسرقنا الوقت.

وفي نهاية الحديث وهي توشك على الرحيل عرضت عليها أن نلتقي مـرة أخرى. لتجيـب بأنها لاتسـتطيع حتى يظهر عليهـا الخجل، وتبدأ بإيضاح الأمر.

لن تتمكن من أن نلتقي مرة أخرى؛ لأنها ستغادر القاهرة.

ولتعوضنـي عن هـذا، تعرض عليّ تبـادل أرقام الهاتـف عوضًا عن المقابلة، وحتى يتسنى لها إخباري عن زيارتها القادمة، قبلت.

وأثناء مغادرتها المكان نظرت إليّ ثم قالت بصوت يملؤه الحزن:

انتظر هديتي لك عند زيارتي المرة القادمة للقاهرة في القريب.

لم أتفهـم هذا ولكن كانت قد سـيطرت عليّ في هذا الوقت القصير، لتملأ روحي بابتساماتها الرقيقة وصوتها العذب وكلماتها الموسيقية.

غادرت المكان ولكنها لم تغادر روحي واسـتمرت في الحياة بداخليّ، وسـارعت في أن أنحيها جانبًا، ولكن لم أتمكن. بعد ثلاثة شـهور قمت بالاتصـال بالرقم الذي قد منحتني إيـاه وأثناء المكالمة قررت أن أفصح لهـا عن رغبتـي في رؤيتها. وأنهـا إن لم تأتي هي إلى القاهرة، فسـأزور أنا لنـدن. حتى قطع حديثي مـع نفسي صوت تلك المـرأة التي واضح من

صوتها أنها في الخمسينات، تجيب عليّ محدثًا لها بنفس لغتها:

هل يمكنني أن أحدث إليسيا؟

لتنهار في البكاء وتحاول أن تتمالك نفسها مرة أخرى متسائلة عن هويتي؛ لأجيب عليها. لتنهال مرة أخرى الدموع، وتشعرني هذه المرة بالدهشة والخوف لتتساءل عن عنواني، لأتجاهل تساءلها، لأتساءل أنا عن إليسيا.

لتجيب بأنها ماتت لتصيبني بالفاجعة، وتشعرني بعدم القدرة على الحديث. انتظرت لبعض الوقت، وهي تحاول أن تجعلني أخبرها بعنواني، حتى تساءلت في أهمية معرفة عنواني الآن. حتى تجيب بأن إليسيا أوصت بإرسال شيء لك، أخبرتها عن عنواني وأنهيت المكالمة.

وسرعان ما استمر الصمت لساعات بل أيام حتى وصلتني هدية إليسيا من لندن.

كانت عباره عن صندوق به بعض فناجين القهوة بأشكال مختلفة، وحبات القهوة السوداء، والكثير من مساحيق القهوة، ومظروف به جواب يحمل أخر كلمات إليسيا إليّ. لتخبرني بما أصابني بعدم القدرة على النطق، والصمت الذي أصابني لفترة كبيرة. كانت كلماتها:

«عزيزي سليم أعتذر عن عدم ملاقاتك في القاهرة، ولكن لم تكن رغبتي. ولكن دعني أخبرك أن مقابلتي لك كانت رائعة بكل المقاييس.

عند قراءة كلماتي سوف أراك أنا من السماء، لا تنزعج كثيرًا فأنا في أطيب الأحـوال الآن. كنت مصابة بسرطان في الدم. وكانت أيامي في القاهرة أخـر أيامـي، وعند تواجـدك في المقهى شـعرت برغبتـك بالتقرب إليّ. فتجاهلتـك في بدايـة الأمر، ولكن سرعان ما شـعرت أن من الممكن أن تكون ذلك الصديق أو الحبيب الذي يمنحني طاقة لاسـتكمال مابدأت به. وكنت أتمنى هذا كثيرًا ولكن قد فات الموعد كما شـعرت أيضًا أنك لا تميل لتناول القهوة، ولكنك تحملت هذا من أجلي. أشكرك كثيرًا على تحمـل شيء مزعج بالنسـبة إليك. أرجو منك أن تصـلي من أجلي دائمًا، وتتذكرني دائمًا عند تناول قطرات القهوة».

عزيزتك إليسيا رايت

ليسـود الصمت في المكان بعد تلفظ كلماته الأخيرة، وأنا مسـتمر في حالة دهشـة مـن الأمر. يبكي هـذا الرجل من أجل امـرأة لم يعرفها إلا بضع ساعات، ومستمر في ذكراها؛ ليكسر هذا الصمت ويبدأ بالحديث وهو يبتسم، حتى يتغلب عليه مرة أخرى حوائط من الدموع.

يحدثني عن اسـتمرار تناول القهوة حتى الآن. وأنه أصبح الآن يعلم كل شيء يخـص هذا الأمر. يبدأ بتجميع شـتات روحـه حتى يتجه بنظره إليّ مرة أخرى قائلًا:

يحق لك قول هذا فأنت لا تعرف حقًا قهوة إليسيا.

الكاتب في سطور

»» محمد السيد كامل طه

ـ محافظة المنوفية

ـ يعمل كمحاسب بالإصلاح الزراعي ـ مديرية القليوبية

عالم افتراضي

كلمة لها معاني كثيرة. فبعض الناس تراها رمزًا للحرية. والبعض الآخر يراها رمزًا للمستقبل وتحقيق الأحلام. وهناك الأغلبية التي تراها سجن مدى الحياة.

أما أنا فلا أراها شيئًا من الأساس، كلمة عابرة ليس لها معنى.

الأيام تشبه بعضها لحد كبير. وكأنه فيديو عقيم يتكرر تشغيله تلقائيًا بدون توقف، ولذلك حياتي تتلخص في كلمتين فقط «الوحدة والملل».

في البداية أحب أن أعرفكم بنفسي «يحيي علي فريد» لقد تخطيت الثلاثين عامًا بقليل، أعيش مع والدتي فقط. فهي كل شيء بالنسبة لي الأب والأم والصديق، أما أبي فقد رحمه الله وأنا طفل صغير لم أتعدى الثلاثة أعوام. ولذلك لا أتذكره ولكن صورته محفورة داخل عقلي؛ لأن أمي تعلق صورته على الحائط في غرفة نومها.

فهي كانت ومازالت تحبه بجنون ولهذا لم تتزوج بعد وفاته. دائما تتحدث عنه وأحيانًا كثيرة يكون كلامها عنه بعيدًا عن المواضيع التي نتحدث فيها، فهي على يقين أنه يعيش بيننا حتى الآن وكأنه لم يمت.

أمي تتعلق بي بشدة؛ لأني ابنها الوحيد. فلم يأذن الله أن تنجب مرة ثانية من أبي. ولهذا فأنا أمثل لها الحياة، ولذلك فهي تخاف عليّ بطريقةٍ مبالغ فيها وكأني طفل صغير.

لا أنكر أنني أتضايق من خوفها الزائد تجاهي؛ لأنه دائمًا يضعني في مواقف محرجة مع الناس. ولكني في النهاية استسلم لإرادتها. فأنا أحبها وأعلم أنها تحبني بجنون، ولذلك أجد لها المبررات الكافية لتلك التصرفات الغريبة. ولكن ما لا يعلمه أحد غيري أن كل تصرف من هذه التصرفات كان يهز ثقتي بنفسي، ويجعلني أميل إلى الانطوائية. أما عن الأمثلة فهناك الكثير والكثير.

وأنا طالب في المدرسة كانت أمي تصر على أن تذهب معي إلى المدرسة. ولا تطمئن إلا عندما تتأكد من دخولي الفصل، ولا تنصرف إلا عندما يدخل المدرس، ويبدأ في الشرح.

في هذه الفترة سيطر عليها هاجس بأني معرض للخطف أو القتل. وأنها تأتي معي لتحميني، وتظل تنتظر أمام باب المدرسة. ولا تطمئن إلا بخروجي من باب المدرسة. فتمسك يدي وتجرني إلى البيت وكأني كلب مربوط بسلسة يجره صاحبه.

في هذه الفترة شعرت بآلام نفسية شديدة جعلتني أكره المدرسة، وأكره الذهاب إليها. لكن أمي لم تتأثر بكل هذا، ومازالت تتصرف معي بهذه السخافة. أما بالنسبة لصورتي أمام الطلبة، فكنت بالنسبة لهم الحلقة الضاحكة، وكأني مهرج في السيرك. وفي الحقيقة لم يكن السبب في ضحكهم الهستيري خفة دمي، وإنما تعلق أمي الزائد بي. فيروها تتبعني في كل مكان، أمام المدرسة وبداخلها، حيث أطلق عليها الطلاب «الشاويش عطية». مما جعلني أمامهم مادة للسخرية في كل فترات تعليمي من ابتدائي حتى ثانوي. وكلما انتقلت من مرحلة إلى مرحلة ازداد الضحك والسخرية. أما عن الشاويش عطية أقصد أمي فلم تفارقني إلا أن دخلت الجامعة فاختلف الأمر نوعًا ما.

أمي: مالك يا يحيي سرحان ليه علطول؟

ـ مفيش حاجة.

أمي: كده يا يحيي، هتخبي على ماما حبيبتك.

ـ بصي يا ماما أنا خلاص داخل الجامعة، ومش هينفع تودوني وتجبيني، أنا كبرت على كده.

أمي: يعني إيه كبرت؟ أنا أمك وبخاف عليك وهفضل طول عمري أخاف عليك لأنك ابني الوحيد.

ـ ده وأنا في المدرسة العيال كانت بتتريق عليّ وعامليني أراجوز، ما بالك بقى لما أدخل الجامعة هيعملوا فيّ إيه؟!

أمـي: أنـت أنضـف منهم كلهـم، دول عيال مش متربـين، ولو حد اتريق عليك في الجامعة، قولي وأنا أمسحلك بكرامته الأرض.

ـ لأ يا ماما ما تروحيش معايا الجامعة تاني، يا إما مش هاروح خالص.

أمي: يحيي أنا مش عايزة أسمع منك الكلام الفارغ ده تاني.

وهكـذا انتهى الحـوار بيننا بـلا أي نتيجة. وكأنه لم يبـدأ من الأصل كمثل أي حديث بيننا. هي من تقرر دائمًا وأنا عليه السمع والطاعة.

أما في المرحلة الجامعية فقد اختلف الأمر نوعًا ما. فبعد فترة طويلة من المفاوضات والمعاهدات، تعهدت وأقسـمت على تنفيذ كل أوامرها النابعة من خوفها الشديد عليّ، وكأني أحلف اليمين لرئاسة الجمهورية. فقرارات الموافقة على ذهابي إلى الجامعة بمفردي بدونها وكذلك عودتي، كان هذا القرار بالنسـبة لي انتصار بمعنى الكلمة، وكأن أبواب السعادة فُتحـت مـن أجـلي. ولكـن القـدر لم يتركني أحلـم كثـيرًا، فأغلق باب السعادة في وجهي بمنتهى القسوة.

في أول يوم لي في جامعة عين شـمس قسـم آداب، والذي يعتبر عالم غريـب عنـي لم أراه من قبل. حيث رأيت أشـياء جديـدة، فتيات جميلة ترتدي ملابس على الموضة، تضع مكياجًا هادئًا لتضيف إلى جمالها طابعًا خاصًـا. وهناك من تضع مكياجًا صارخًـا وترتدي ملابس ضيقة لتبرز

أنوثتها؛ فتلفت انتباه الشباب. وهناك نسبة كبيرة من الفتيات تنتمي إلى البيئة الريفية وينعكس هذا على ملابسهم الواسعة وألوانها الغير متناسقة، وتلك الفتيات لا يضعن مكياجًا بالمرة؛ لأنهم يروه تصرف خاطئ خارج عن البيئة التي تربوا عليها. فعادتهم وتقاليدهم لا تسمح بذلك، ولكن من داخلهم يتمنون تكوين صداقات مع الشباب داخل الجامعة؛ لأنهم يعلمون أن تلك الفترة لن تتعوض ثانيةً.

الجميع ينتظر هذه الفترة بفارغ الصبر. فهي تعني بالنسبة لهم الحرية، اختلاط الشباب والبنات داخل أسوار الجامعة وخارجها. والتي تنبت فيما بعد قصص حب ومشاعر غريبة لم يعرفوها من قبل، وصدقات بريئة الهدف منها اختلاس لحظات السعادة، لتوضع بعد ذلك بحرصٍ شديدٍ في كتاب الذكريات صفحة «أوقات سعيدة». وهناك رغبات شريرة يزرعها الشيطان داخل عقولهم بإلحاحٍ شديدٍ وهناك الكثير والكثير.

ومع ذلك انطويت على نفسي بعيدًا عن هذا العالم. وكأني كائن مختلف عن هؤلاء البشر. والسبب في ذلك يرجع لعدة عوامل أولها التربية الخاطئة والتي صنعت مني إنسانًا مهزوزًا وخجولًا يرفض التعايش مع المجتمع. ثانيًا تلك الملابس الغريبة التي كنت أرتديها، والتي تجبرني أمي عليها رغمًا عني، فهي كانت تسيطر على كل شيء في حياتي حتى اختيار ملابسي، فهذه الملابس تعتبر مادة خصبة للسخرية

مـن قبل طـلاب الجامعة. ثالثًـا وهذه أهم نقطة أن والـدتي لم تتركني في حـالي داخل أسـوار الجامعة، صحيح أنها لم تسـحبني خلفهـا كالطفل الصغـير إلى الجامعـة في الذهاب والإياب، ولكن ما فعلته أسـوأ وأضر سـبيلًا. فقد كانـت تقتحم عليّ المدرجات ثم تنـادي عليّ بصوت عالي، فيضحك الجميع وكأني نكتة جديدة تُسمع لأول مرة. الآمر من هذا أنها كانت تحضر معها شـنطة بلاسـتيك مليئة بسندوتشـات الجبنة والبيض والمربـى وكأني طالب في الابتدائية. والطبيعـي أن أكون رمزًا للضحك والسـخرية داخل الجامعة، فكرهتها بشـدة، وكنـت أتمنى من داخلي أن تمر السنوات الدراسية في لمح البصر حتى أنتهى من هذا العذاب.

لا أعرف كيف بنيت هذا الحاجز السميك بيني وبين الجنس الآخر.

هل الخطأ يكمن في تركيبة شخصيتي الناتجة عن التربية الخاطئة؟

أم الخطأ في عدم فهم فتيات الجامعة لظروفي المعقدة؟

لم أعرف فتاة واحدة خلال سنوات الجامعة. مع إن كل شاب في فترة الجامعة تعرف على عشرات الفتيات. كم أكره هذه العزلة التي سجنتني خلف قضبانها بإرادتي أم رغمًا عني، لا أعرف؟

وبعد أن تخرجت من الجامعة ظهرت حلقة جديدة من الحياة عليّ المضي في طريقها العصيب، وهي مرحلة العمل أو بالمعنى الأدق البحث عن وظيفة.

كل شـاب يتخرج من الجامعة يبـدأ في مرحلة جديدة، وهي البحث

عن عمل، كم هي مرحله شقاء وتعب! لأنه في هذه المرحلة يرى الوجه الحقيقي للحياة. وجه جامد يخلو من اللهو والمرح، وكأنه كتلة صخرية تمتص حرارة الشمس وقت الظهيرة. أما بالنسبة لي فالموضوع مختلف فأنا لم أرى الوجه الرقيق للحياة حتى أخشي الوجه الجامد. فكل وجوه الحياة تشبه بعضها، ومادام لا يوجد تغير، إذن فليس هناك جديدًا.

بعدما حصلت على الشهادة جلست في البيت مثل أي فتاة تنتظر النصيب يدق على باب بيتها، فيهديها القدر بعريس ينتشلها من عالم العوانس لتدخل مرحلة جديدة. ولكني لم أنتظر الزواج. فمن تلك المعتوهة التي ترضي أن تتزوج شاب مثلي لا يصلح لأي شيء في الوجود. كان انتظاري لظهور وظيفة مناسبة تدق على بابي. كل الشباب تبحث عن فرص عمل وتجري خلف إعلانات الجرائد والمجلات ومواقع التواصل الاجتماعي، وأنا محلك سر، أنتظر العمل يأتي إلى باب البيت، ويرن الجرس ويأتي دوري حينها لفتح الباب.

جلست سنة ونصف في البيت منتظرًا رحمة القدر. ولكن قدري لم يراني وكأني حشرة تخطو في قلب الصحراء فلا يراها أحد. لم أفعل أي شيء في تلك الفترة سوى الجلوس أمام شاشة الحاسوب بالساعات الطويلة غير مهتم بأي شيء يتعلق بمستقبلي، حتى جاءت اللحظة المنتظرة. صحيح إنها تأخرت كثيرًا ولكنها جاءت في النهاية، صحيح إنها لم تأت عن طريقي لأني بكل بساطة لا أتحرك من البيت، فأنا دائم

الجلـوس في البيـت مثل السـمك الذي لا يخرج من المـاء، ولكني قمت بدوري على أكمل وجه في الانتظار دون أدنى اهتمام حتى جاء النصيب.

أمـي الغالية دفعت رشـوة كبيرة حتى تسـتطيع تعييني في الحكومة. فأتحول في تلك اللحظة من عاطلٍ يجلس في البيت إلى عاطلٍ يجلس على مكتب داخل المصالح الحكومية عديمة النفع.

ومـع ذلـك فالوحـدة لم تفارقنـي، مـا زلت محبوسًـا داخـل حوض زجاجي شفاف يشبه حوض السمك. والسبب في هذا أنني حتى الآن لم أتكيـف مع هذا المجتمع الذي أعيش فيه. والأصعب من هذا أن معظم زملائي في العمل من جيلٍ مختلفٍ عني، فهم يسبقوني بأكثر من ١٥ عامًا على الأقل. ولذلك فهناكً اختلاف كبير في الفكر بيني وبينهم.

أما الجزء الكوميدي في الموضوع بالنسـبة لزملائي في العمل أن أمي مازالت تجبرني على أخذ شـنطة السندوتشـات معي في العمل. صحيح إنهـا لم تقتحـم عـليّ المصلحة الحكوميـة مثل أيـام الجامعـة، ولم تلتصق بي في رحلـة الذهـاب والإيـاب إلى العمل. ولكن ذكاءها كان أشـد مما تصـورت، فقد أخذت أرقام الزملاء من النسـاء كبيرة السـن حيث أن أعمارهم تقترب من عمر أمي «رمز الإزعاج في حياتي».

ومـن الطبيعـي جدًا أن أسـمع تعليقات سـخيفة من الزمـلاء من باب الظرف والتسلية، أما أنا فكنت ابتلع كل هذا رغمًا عني، حتى الآن ما زلت مادة للسخرية والضحك في كل مكان أذهب إليه.

في هذه الفترة أدمنت ذلك العالم الافتراضي، حيث أصبحت أجلس أمامه طول الليل، أعيش داخله بمنتهى الحرية لا أخاف من أحد. أتصرف بحريتي دون خجل، أتعرف على الفتيات دون أدنى مشكلة. يا له من عالم سهل وبسيط ! كم أعشق هذا العالم! وكم أكره الواقع بكل سخافته!، يا ليتني أستطيع أن أعيش حياتي كلها خلف شاشة الحاسوب متنقلًا مثل الفراشة بين صفحات المواقع المختلفة.

هذه حياتي كاملة باختصارٍ شديدٍ، مختلطة بمشاعر معقدة من الوحدة والملل، الانطوائية والتقوقع بين خيوط العالم الافتراضي.

أما عن حياتي اليومية فكلها تسير على وتيرة واحدة، كما قلت من قبل. آلاف النسخ المكررة من أصل واحد، وهذا اختصار لحياتي اليومية بكل ما فيها من أحداث مملة:

استيقظ من النوم مبكرًا؛ لأذهب إلى عملي في أحد المصالح الحكومية. عمل بلا قيمة ولا هدف، مجرد شخص جالس على مكتب في حجرة صغيرة ممتلئة بأشخاص من نفس الفصيلة (موظفين حكومة). كلام كثير في مواضيع مختلفة تلتقطه أذني غصب عني، وأغلبية هذه الأحاديث الجانبية ليس لها قيمه من الأساس.

أعيش منطويًا داخل هذا المبنى العتيق، والذي كان في الماضي قصرًا لأحد الباشوات، ثم تحول بعد الثورة إلى إحدى المصالح الحكومية

عديمة النفع. فأنا أشعر أني مختلف عن تلك الفصيلة الحكومية والتي تشبه السلاحف في حركتها. ينتهي عملي في الثانية ظهرًا، لأعود إلى البيت ومن هنا أقع داخل دائرة محكمة من الملل والوحدة.

قليل من الأكل يكفي لإشباع جوعي، ثم ألقي بجسدي على الفراش لأنعم بنوم عميقٍ؛ لأسرق بعض ساعات الوقت المملة. وبعد استيقاظي من النوم أتجه مباشرةً إلى جهاز الحاسوب لأجلس أمامه ساعات كثيرة. اتنقل من خلاله في العديد من المواقع داخل هذا العالم الافتراضي عالمي الخاص.

دائمًا أبدأ بفتح صفحتي على الفيس بوك، أتابع كل جديد من منشورات الأصدقاء وما يترتب عليها من تعليقات سخيفة دائمًا، أعلق بإعجاب لأي منشور يظهر أمامي حتى قبل أن أراه. أتضايق كثيرًا من سخافة هذه المنشورات وتفاهتها. فأي شخص يكتب أي شيء ثم ينشره على صفحات الفيس بوك ليراه المئات من الأشخاص، كلها أشياء عادية لا جدوى من كتابتها، مثلًا أشخاص يشعرون بالتعاسة، وأشخاص يعانون من غدر الحبيب، وأشخاص آخرون لا يفعلون شيء سوى الاستهزاء بمن حولهم، وهناك أشخاص مصابون بجنون التصوير، يلتقطون لأنفسهم صور، في أي وقت، وفي كل وقت، في البيت، في العمل، في الجامعة، في الشارع، وفي كل مكان، ثم ينشروها على صفحات الفيس بوك؛ لتحقق الكثير من الإعجابات ومن التعليقات السخيفة.

في البداية كنت أخجل من كتابة منشور ونشره على صفحات الفيس بوك. وكنت أكتفي بالإعجاب وتعليقات محدودة لا تزيد عن هذه الكلمات رائع، أكيد، متابع وهكذا. ولكن مع الوقت اندمجت مع الفيس أكثر وأكثر حتى جاءت هذه اللحظة التي أكتب فيها منشورات لا قيمه لها، وأنشرها على صفحات الأصدقاء، وأظل مترقب الإعجابات والتعليقات بقلقٍ ملحوظٍ، وكأني رجل أعمال يضع أمواله في البورصة منتظرًا عبث القدر لتحديد مستقبله.

هناك بعض الجروبات انضممت إليها كعضو يبحث عن التسلية والسعادة المزيفة. فهي جروبات للتعارف بين الشباب والبنات. كم أنا حريص على الانضمام إلى تلك الجروبات من أجل اصطياد الفتيات الباحثة عن التسلية والمشاعر الكاذبة، ولكن للأسف دائمًا هذه العلاقات لا تتعدى معي إطار العالم الافتراضي، لا يمكنني اصطحابها على أرض الواقع وكأني خلقت لأعيش في هذا العالم الافتراضي.

أقضي معظم الوقت بين صفحات الفيس بوك. ولكن هناك عادة دائمًا تلازمني أثناء التجول بين مواقع النت، وهي الاستماع إلى الأغاني بصوت عالي يخترق آذان جميع سكان العمارة، فأنا دائمًا مواظب على تحميل كل جديد في عالم الأغاني.

وفي النهاية أخطو خطوات سريعة على موقع اليوتيوب، أشاهد فيديوهات مختلفة، شيء يشبه الكوكتيل، سياسة على كورة علي فتيات

ترقص بطريقة مثيرة على شباب تتصنع خفة الدم ولهم جمهور كبير، فهي شيء يشبه «سمك لبن تمر هندي».

في النهاية يغلبني النوم أغلق جهاز الحاسوب ثم أتمدد على الفراش في ثبات عميق، لينتهي اليوم الذي يشبه باقي الأيام. وكأنها نسخة مكررة من آلاف النسخ لأصلٍ واحدٍ. حياتي لم تتعدي إطار العالم الافتراضي، وكأني أهرب به من مشاكل الواقع. أعلم أن هناك الكثيرين مثلي مسجونين ما بين قضبان هذا العالم الافتراضي، منعزلين عن الواقع، وكأنه ملاك الموت يخشاه الجميع.

الكاتبة في سطور

»» إيمان قاسم حساني

ـ من دولة اليمن
ـ شاركت في العديد من المنتديات الأدبية

الإنسانية

أيقظ نحيبها كل ذي قلبٍ وارتجف منه القريب. هز صراخها شوارع المدينة. شاركتها النجوم والأقمار أحزانها. ألقت نفسها في أحضان الوسادة التي ابتلعت دموعها الجارية. لم تكن تلك وسادة من قطن بل كانت الأذن المصغية لها المنصفة في رأيها.

إن أخيها الذي تغافل عن حقوقه، و ملأ قلبه السواد نحوها، وزوجته التي تعمدت افتعال المشاكل، حتى أصبحت الفجوة بينهما كالثقب الأسود تبتلع كل جميل، و توأد الحب الأخوي الطاهر.

في تلك الليلة أنهك التعب جسدها والصداع فتك برأسها. لم تستطع النهوض وإتمام عمل البيت. مرضها أتى لصالح زوجة أخيها. لم تترك قولًا إلا قالته فيها، ولا شتيمته إلا وصفت أخته بها. وكثورٍ هائجٍ ذهب إليها مسرعًا، ولم يتركها إلا وقد تورم خدها وظهرها كشبكة العنكبوت.

هي لم تبالي بالألم والدمع والسهر، ولكن تغير حاله، كان مصابها.

قـررت بعدها أن تعـود إلى زوجها، وأن تلتـزم بشروطه من الكبت وعـدم إعطائها حقوقها. الصبر على الضيم أهـون من فقد الكرامة كل يوم في حضن من وليته أمرك، وظننته سندك بعد رحيل والديك.

عندما تفقد المرأة ساعدها يصبح عظمها لينًا سهل الكسر والخضوع.

أخـذت هاتفها وأرسـلت لزوجها أنها سـتكون له مـا يريد، وبكل جبروت قال لها:

تعلمين البيت أين يكون. قبل أن تشرق الشمس كانت على استعداد للمغادرة وكما توقعت لم يأتِ أخيها ليعتذرعلى فعله.

روت بدمعها أرصفة الطريق، وتورمت رجليها وهي تجر حقيبتها بيدين عاريتين وجسد يتضور جوعًا وعقل مملوء خذلان وضيم. تارة تلعن الزمن وتارة تشتم أخيها وزوجها الذي بلاها الزمن بهما، وتتمتم بأحرف نازفة:

أحببتـه حتـى صـار أنـا وزادت عنـده الأنا، أصبـح لعينـي الضياء والسـنا. وقـال إنني المها، وحبـه لي تعدى الكون والفضـا. وها أنا أجر الحقيبة بقلبٍ مكسورٍ يتمنى الردى.

أهذا عهد الرجال في هذا الزمن أم أن الغباء مني تمكن؟!

مرت السـنين وأنجبتُ أحمد ورنا. ظلت حياتي متأرجحة بين الحزن والألم، لكنني كتمتُ حزني. لم أطالب ولم أثور.

كل يوم أتصل لأخي وكم أعلم أنه يحبني، ولكن بعض الزوجات كالثعابين.

وذات يـوم دعوتـه عـلى الغـداء وحضرت معـه زوجته، عـلى المائدة اجتمعنـا وتبادلنـا الحديـث. ضحـك الأطفال وسـعُد قلبي بابتسـامته. تذكـرتُ عندمـا كان والدانا حولنا ونحن نتضارب عـلى فخذ الدجاجة حينـما رأى شـهيتي لها تركها لي. واليوم أنا التي أتـرك له ما يحب. وما إن شبع قال لي سلمت يداكِ وبضحكةٍ ساخرةٍ قالت: له فعلاً سلمت يداكِ!

رأيـت الحزن في عينيـه، ولكنه كالغريـق لا يسـتطيع التنفس. لعب الأطفال معاً بالكرة قذفها أحمد بقوةٍ، وأصاب بنت خاله سارة بخدشٍ بسـيطٍ. صرخت أمها، وعلى الفورعادت للمنـزل بذاك الوجه المتجهم المملـوء غضبًـا وكرهًا، وحرمت على أولادها اللعـب أو حتى الحديث مع أولادي، وأحترقُ أنا وأخي كعادته ضعيف الشخصية.

حاولـت جاهـدة مـلء قلـوب أولادي حبًـا لهـم. لكـن منذ تلك الحادثـة تغيرتُ وتيقنـت أن أخي مات. أخي الذي حمـاني ذات يوم من المطر وألبسني معطفه وأصيب بنزلة برد. أخي الذي قسم لي من لقمته، أخذ ميراثي من بيتنا وحرم عليّ دخوله.

منذ دخولها وهي تغرس فيه وتستلذ بسماع شجارنا.

كبر الأولاد وعوضني الله بجيران كالأخوة، أنسوني فقدي قليلًا.

أحـب أحمـد ابنة الجـيران التـي تصغره بعامـين. وعرفـت ذلك من رسالته لها حيث قال فيها: «غاليتي سعاد وأنتِ السعادة لقلبي، والحب

الذي غزاني وأيقظ ليلي. منذ طفولتنا وأنا لا أرى سواكِ، وقلبي لا يحب غيركِ. تبقى لي عام على الثانوية وسأخطبكِ لحين إكمال جامعتي..» صرخُت: لا لا لا، لن يحدث ذلك لن أكرر خطأ أخي وأزوج ابني من تلك الفتاه المدللة، نحن بسطاء وتلك الطبقة لا تناسبنا.

في اليوم التالي فتحت الموضوع معه، وشرحت له أن الفتاة التي تجد ما ترغب به تتعب كثيرًا. مهما حاولت التظاهر بعكس ذلك والتحمل.

«ابني العزيز أعلم أنك ستلبي لها ما تريده. ولكن هناك أمر يجب أن تعيه، مجرد إحساسها أنك تتعب لأجلها. وقد تُوفق وتفرح، وقد تخيب فيؤثر هذا في نفسك وتشعر بنقصك تجاهها. وكلاكما ستكبتان ولكن ستنفجران ولن يسعكما البيت. شعور الرجل بالنقص تجاه زوجته كفيل بقتله في اليوم مئات المرات. من تربى يا ولدي على الراحة صعب عليه أن يتحمل الجوع مهما صبر».

شعرت أن حديثي أثر فيه وقال: «فهمت وأنا لا أحب أن تراني بعين النقص. مهما كان الحب بيننا في أوجه. فعندما يحال الحب لرحمةٍ وشفقةٍ، فإذن، نلجمه بالزوال. ولا أريد أن أحني رأسي لغيركِ يا قطعة تتوسطني ويا روحًا تسكنني».

اطمئن قلبي وضممته لصدري وقلت: حماك الله يا ولدي.

مرت الأعوام وأكمل ولدي جامعته وقرر الزواج، ثم دعوت أخي وقد كان ذلك. امتلأ قلبي سعادة وبجناحين حلقتُ في كل اتجاه.

انتصف الليل بنا أنا وابنتي، قال أخي: تعالوا معي وسأوصلكم للمنزل.

فرحتُ كثيرًا، وزوجته تتمتم واكفهر وجهها. ورده أثلج صدري أنني أخته، ومن العيب أن تقلني سيارة في حضوره. صعدنا لسيارته أنا وابنتي وعين ولده تلاحق ابنتي، واضطرب قلبي لذلك.

أنجب ابني سريعًا وشاخ زوجي أيضًا، وإنحناؤه زاد ألمي، فنصف وجوده خير من رحيله. زوجي الذي أحب نفسه وكنت له مجرد زوجة على الورق، أدرك أخيرًا أن ليس له سواي بعد أن أمات الحياة بداخلي، وتجرعت معه مرارة العيش، تحملت الضيم؛ لأجل أولادي. فالمرأة ليس لها غير أولادها، ولأجلهم تفني روحها لهم.

الأولاد الصالحون نعمة من الله. هم ملاذنا حينما نكبر، ـ والحمد لله ـ ثمرة صبري أتت واكتملت سعادتي بحفيدي، وكأني ما عشت الحزن يومًا.

أشرقت الشمس وأشرقت معها نسائم الخير، وقرع الباب ابن أخي ومعه هدايا للمولود من أبيه.

أخذت ريم منه الهدايا ثم رحلت.

قال لي الحمد لله أننا بمفردنا أنا أريد أن أن أخبركِ ب ب ب أريد أن أقول أن أن..

هززتُ برأسي وابتسمتُ ثم قلت له: أتحبها؟؟ إحمرَّ وجهه.

وقال: نعم. وأردفتُ قائلةً وأنا موافقة.

لم ينقضِ النهار إلا باتصال من أمه، ولم تترك لي مجالًا للحديث. وقد إنهالت عليَ بسيل من الكلام الجارح، وأننا نلعب بعقل ابنها الذي تراه طفلًا، وهو يبلغ من العمر الثامنة والعشرون عامًا، ثم أغلقت الهاتف.

العلم بالأمور قبل حدوثها يخفف من وقعها، فكلامها لم يزعجني كثيرًا.

بعد ثلاثة أشهر..

اقتربت الاختبارات الجامعية لريم، وهذه أخر سنة لها، وتطبق ما درسته في الطب في بعض المستشفيات.

وذات يوم غاب الدكتور. وكان لابد من إجراء العملية للمريض، وإيقاف نزيفه وكانت ريم متواجدة وأمرها المدير أن تفعل شيئًا، حتى يصل الدكتور، وبثقةٍ أجرت العملية بنجاحٍ باهرٍ وأكمل معها الدكتور عندما حضر.

في اليوم التالي شكرت المريضة هدى الدكتور؛ لإنقاذ حياتها وقال لها: الفضل -بعد الله- يعود للدكتورة الخريجة ريم.

انصدمت من ذلك، وعلمت أن البشر الصالحين هم أرواح وقلوب نقية محبة للخير.

بعد أسبوع ذهبت هدى إلى أخت زوجها حنان، وكان باب البيت مفتوحًا وسمعت صوت أخت زوجها وهي تأن وريم تعالجها.

بـادرت بالحديـث أن الله رزقك بـالأولاد ورزقني بالمـال. وأيقنت مؤخرًا أن المال من الشيطان ومهلكة الإنسان.

أعذريني فقد ظلمتـك كثيرًا وألتمس من قلبك العفو. فأنتِ اسـم على مسمى.

قاطعتهـا ريم وقالـت: أعذريني يا أمي ولتسـمعي، قـولي يا زوجة عمـي إننا أغنياء بأخلاقنا. وأنا أحترمكِ، ولكن أسـلوبك المتعالي زرع بداخـلي فجـوةً وكرهًـا لكِ. كنـتِ تظنين أننا نـود قربكم مـن أجل ما تملكـون وما عند الله هو أبقى. إن أفعالك مـع أمي ومعي أنا من تجريح عـلى حب ابنـك لي كفيل أن يغسـل أي حـب بداخلي، ومـا فعلته كان واجبي. نحن الأطباء من واجبنا أن نسـاعد أي مريض حتى العدو لنا. وهذه الإنسانية التي جردكِ الله منها، هي التي تحركنا. أمي الآن مريضة، أرجوكِ انـصرفي حالًا. قاطعتني أمي وهي تقـول حبيبتي ريم لم أربيكِ عـلى الانتقام، وطـرد الضيوف من بيتنا. وهذه خالتـكِ وواجب عليكِ احترامهـا، وهـي الآن هنا لأنها علمت أنها كانت على خطأ. والإنسـان بطبيعتـه يخطـئ، إذا لم يجد ناصحًا. ولنعذرها فهـي زوجة أخي الوحيد الذي حرمتنا منه شهور.

قالـت لهـا: لا، لا أليـس معكم هنا؟! فقـد تركنا أيضًا منذ شـهور، وكنتُ أحسبه معكم.

آاااه أين أخي؟ أين سيكون رحل الآن؟

ليس لنا أقارب هنا، لكن لدي إحساس أنه في بيت أبونا. ريم تجهزي سنذهب على الفور. وقالت على استحياء وأنا أريد الذهاب.

من حقكِ ذلك ما زلتي زوجة أخي. اتصلت على ابنها كي يقلنا وعلى الفور أتى.

عند وصولنا هرعت إلى البيت ووجدته متكأً، احتضنته وبكينا في حضن بعض قال: أنا أسف وقلت له ما كان لن يتكرر.

أحبك أخي وليس لي سواك بعد الله..

أنت سندي، وقوتي التي لا تضعف، بضعفك أموت أنا.

مسح على شعري وقبل رأسي، ثم قال: نعم الأخت أنتِ، وهبة من الله وهبني إياكِ.

ومن اليوم لن تري ضعفًا، ولن أرى الدمع في عينكِ أبدًا. وكان ينظر لزوجته ثم قالت حنان: أخي العزيز إن هدى اعترفت بخطئها واعتذرت لنا.. قاطعتها هدى بقولها أنا أعتذر منكم جميعًا. ومن اليوم نحن أسرة واحدة، وسنزوج الحبيبين، وستكون بداية أفراحنا الأبدية.

.

الكاتب في سطور

»» فريد الخمال

- قاص من مواليد مدينة طنجة، المغرب، وأستاذ بالتعليم العمومي.
- شارك بقصتين في مجموعة قصصية مشتركة «رؤى القلب» صدرت عن دار الشهد المصرية سنة ٢٠١٧م.
- شارك بقصة واحدة ضمن مجموعة قصصية «على حافة السرد» صدرت عن دار جولدن بوك المصرية ٢٠١٨م. (مسابقة)
- بالإضافة إلى قصص أخرى منشورة في بعض الجرائد الوطنية، والمحلية.
- شارك بقصة في مجموعة قصصية مشتركة، ستصدر عن دار المعرفة المصرية، سنة ٢٠١٩م. (مسابقة)

الـــــوداع

الفصـل فصل الصيف، واليوم يوم عطلة. على عتبة منزل الجيران يجلس محسن ويوسف، يتبادلان أطراف الحديث، يتحدثان في كل شيء، ولايعرفان أي شيء، كلامًا صافيًا بعيدًا عن الحياة ومشاكلها، وفرح يغمرهما.

في الكُتـاب الصيفـي كان لقاءهمـا، ومـن هنـاك بـدأت صداقتهما. يمـر الأب عليهما على غير عادته، مع ابتسـامة علـت محياهما، وقلقًا ملأ خواطرهما. مرت السـاعات والدقائق، فبدأ اللـون الأرجواني الممزوج بالأزرق يلطخ كل شيء، فتفرقا إلى حال سبيلهما، على موعد مع الغد..

في وقت تنفس الصبح، دحرجة من سـطح المنزل لأسفله، وخفقان للقلـب وتسـارع لضرباتـه، أحس بهـزة رهيبة من أخمـص قدميه حتى أوقفت شـعيرات رأسـه. فتح الباب وركض في اتجاه المجهول، توقف لهُنَيْهَة وحدد الوجهة، فلم يجد غير منزل الخال وجهة.. لم يكن قد أفاق تمامًـا، فاختلـط المشـهد بكابوس اسـتيقظ منه لحظة النـداء والصراخ.

رأى نفسه في الحلم وإخوته يهوون من شاهق لا قرار له، كان يرتعد ثم سمع مناداة أمه عليه. قرع للباب بسرعة، ودق للجرس، ومناداة بأعلى الصوت، هلع تملك الجميع، استيقظ المنزل برمته على صوت الطرق المحموم، طرقات على الباب مع صوت مذعور.

ـ من يقرع الباب بهاته الطريقة؟! لا أحد يعرف ماذا يحدث؟ أم ماذا وقع؟

ينتفض الخال وأولاده من مضاجعهم، متوجهين نحو الباب. حالته دالة على كل شيء، كل عضلاته ترتجف، كما ترتجف ورقة في شجرة هبت عليها رياح الخريف، ووجه شاحب، اختفت منه البسمة، مطرقًا إلى الأرض وقد اغرورقت عيناه بالدموع وعلقت كلماته، ثم ارتمى في حضن خاله مجهشًا بالبكاء، انفجر الحزن، وزلزلت الصدمة زلزالها، وأرعد في المنزل صوت النحيب..

الثامنة والنصف صباحًا، ومناد يناد ويدق الجرس. ردت الأم وأخبرته أن ولدها لايزال نائمًا. يستيقظ متأخرًا كعادته، وتخبره بمجيء صديقه في وقتٍ مبكرٍ على غير عادته. يخرج من المنزل باتجاه بيته، أفكار من هنا وهناك، ويتساءل في نفسه ما السبب الذي سيأتي بصديقه مبكرًا، يلمحه وسيماء الحزن والألم علا وجهه البرئ..

توجه نحوه والدمع يملأ مقلتيه. عينان مبللتان تعبران عن حزن دفين فيهما، أحس وكأن الدنيا تدور من حوله، وقف مذهولًا مشدوهًا، أسرع في اتجاهه، الشَدَه والأسى يقطر من نبراته الحزينة:

ــ لنتحرك من هنا، أُفضل المشي لعلي أجد منه راحة..

شـعر بقلبه يثب إلى عينيه ويسيل دموعًا كحبات الجمان، رقراقة على خده الصغير.

لازال لحد الآن لم يستوعب ما حصل، وهل ما وقع حقيقي؟

أسـئلة كثـيرة تـدور في رأسـه، راح يمـضي في الغابـة الكثيفـة مـن علامات الاستفهام، وكل سؤال تتصدع له الجبال الرواسي، يجاوره يوسف وهو منصدم مثله، هل من شارح يشرح ما حدث؟ أم هل من موقظ يوقظه من هذا الكابوس؟

ويفتـح عينيه عـلى صبح مـشرقٍ والفرح يعلـو وجهه. اسـتغرقا في المـشي، فهو المتنفس الوحيـد للتخفيف من بعـض الضغوطات. ابتعدا كثـيرًا عـن المنزل، لم يرهقهـما التعب، إنما وجب عليهـما الرجوع كي لا يكون الألم آلامًا، وينشغل بال أهلهما عنهما..

استغرقنا في المشي ولم أخبرك يا يوسف بما حصل، لقد مات أبي، كان الصخب يملأني وأنا أسمع محسن. توقعت أن أسمع كل شيء إلا خبرًا صادمًـا كهذا، انهـارت كل القصص التي نسـجتها. كان لهذه الكلمات المعـدودة وقع الصاعقة علي، واجمًا مرتعد الأوصال في مكاني، في محاولة مني لعدم تصديق ما قاله..

بالأمس رأيته فكيف يموت اليوم؟! وهل الموت قريب إلى هذه الدرجة؟!

اسـتيقظت على صراخ أمي و بكائها، وهي تطلب مني أن أصعد إلى سـطح المنزل، فأنا الابن الأكبر، رغم صِغر سـني؛ لأرى مشـهدًا ليس كباقي مشاهد الحياة..

كيـف للحيـاة لها أن تذيقنا مرارتهـا ونحن لم نعلم بعد ماهي؟ سـمعنا سابقًا عن الموت، ولكننا لم نره من قريب ولا من بعيد يدخل دارنا. بالأمس عندما رأيناه وهو خارج من المنزل، كان ذاهبا ليشـتري حبلًا، فبعد حادثة السـير التـي كانت قد وقعـت له، تدهـورت صحته وعانى بعدهـا كثيرًا، ليقضي سـنوات ليست باليسيرة تحت الرعاية الطبية. ومنذ ذلك الوقت لا يخـرج إلا برفقتنـا، تحت مراقبة أمي، ومراقبتنا جميعًـا.. أما إذا خرج وحده فتراه يوزع المال على كل من يلتقي به، وبالكاد يتذكر مقر سكناه.

مؤخرًا استبشرت أمي بحالته خيرًا، وظنت أن حالته قد تحسنت، بعدما توقف عن تناول الدواء، فسمحت له بالخروج.. ليغادرنا من غير وداعٍ..

مسـح الدموع الساخنة المترقرقة على خده بظهر كفه، ازدرد ريقه ثم اسـتدرك يقول، لم أسـمح لإخوتي بالصعود إلى سطح المنزل ليروا ذلك المنظـر المريـب، يكفي أني رأيته جثـة هامدة والحبل ملتـف حول عنقه، وحفر في ذاكرتي ذاك المشـهد .. لازالوا لحد الآن لم يستوعبوا ما حدث، شـاردين في ركـن المنزل، والـدار في اضطراب، تعـج بالمعزين، الكرب يزلـزل الصـدور، والحزن والأسـى باديـان على الوجـوه، حاصرنا الهم والغم مبكرًا، وقذفتنا رياح اليأس إلى دهاليز مجهولة.

.

وقت مستقطع

«في حياتـك يا صديقي قـد تصادف مرضى، ما من عمل على وجه البسـيطة إلا وقـد كان لهم يد فيه، وما من مجال إلا ويعرفونـه ولهـم خبرة فيه أيضًا، فـإذا التقيت بهم فلا تضيع وقتك في إثبات العكس».

لم يتبق للاختبار الأخير، إلا أيامًا قلائل. فكثرت ساعات المراجعة، وتفاقـم ضغـط الامتحـان.. انقضـت السـاعة الإضافيـة، فاخترقـت الدراجة النارية الطريق الطويل الخالي من المارة. بسرعة متوسطة يشقان طريقهـما نحو بيتهما، السـاعات والدقائق معـدودة، ولا فرصة لتضييع الوقـت. فقد اتفقا على تحصيل أعلى المعدلات لولوج كلية الطب، ومن حينها لم يَتَوَانَوْ في استغلال أي وقت للمراجعة.

فوجئا بسيارتين طائشتين تتسابقان، حاولا الهروب منهما، والتوقف عـلى جانـب الطريق، لكن بمجـرد انعطاف صغير، حصـل الاصطدام

بشكلٍ مروعٍ. قفزا من الدراجة النارية، وارتطم الرأس بالأرض، مشكلًا نافورةً لسائل قاتم ساخن، وسقط الآخر على ظهره. استأنفت السيارة المجنونة طريقها، وصوت الأغاني يشق الأسماع.

التفت لصديقه المفارق للحياة وقد تلطخ وجهه وثيابه بالدماء الحارة. رآه يلفظ أنفاسه الأخيرة، وشخصت عيناه في السماء، لاحقة بالروح.. صديقه الذي قضى أغلب سنواته معه، فمنذ لقائهما في القسم الأول ابتدائي، لم يفترقا إلا نادرًا.

تحلَّق الناس حولهما بعدما كان الشارع خاليًا، محاولين معرفة ما جرى، وتعالت الأصوات ناسجة سيناريوهات مختلفة. تركزت الأعين متفحصة المشهد الدموي، لم يجسر أحد على تقديم أي مساعدة، فالدماء غطت الأرض في منظرٍ مريعٍ. بوجهٍ أمردٍ وخدين تعلُوهما حمرة، تخلل المتحلقين بسرعة، جحظت عيناه، وأخذ الكلمة رافعًا صوته، بصوت جهوري، كمن تناول مداخلة في ندوة ما:

ـ بعد ليلة حمراء بإحدى منازل الحي الجديد، برفقة فتيات الليل، ثملا فتشاجرا بسبب إحداهن. تمكن منهما الشراب، وانطلقا بالسباب، منذ خروجهما حتى وصولهما إلى هنا. أمر الحادث كان بديهيًا، كانا يترنحان يمنة ويسرة، قنينة الخمر في يد، واليد الأخرى في المقود..

لـو رأيـت سرعتهم وهـم يخترقون الشـارع الطويـل، لصعقت في مكانك من هول المنظر، من حسن الحظ أن الشارع كان خاليًا.

قاطعه أحدهـم، بنبرة غلبت عليها لهجة البـداوة: لقد كانت سرعة جنونية.. وصمت في محاولة منه لإرجاع الكلمة للمتحدث..

طفت على وجه الأمرد ابتسامة بلهاء، واستأنف في حديثه:

ـ حينهـا علمـت أن وقوع الحادثة أمر لا مفر منـه. وما زالت الفكرة تخترقني، حتى رأيتهما يقفزان على بعد عشرة أمتار..

بصوتٍ سريعٍ، قاطعه رجل كث اللحية، ملبد الشعر:

ـ بـل أكثـر من ذلك، ما يقارب العشرين مـترًا، والدليل أن القنينة لم يبق لها أثر من قوة الاصطدام.. وصمت مقتديًا بمن سبقه.

اسـتمر في حديثه، بخد متورد، وبصوت أخفض مُبديًا سيماء الحزن على وجهه:

ـ السـيارة التـي كانـت تلحقهـما، دارت أربـع دورات في الهواء، ثم أخـذت طريقهـا بسرعة خياليـة. أراد أن يقاطعـه صاحب اللحية الكثة، فأشار له بيده، وصوت بداخله يقول:

اُصمت فلا مجال لحديثك الآن، فكل الأضواء مسلطة علي.

واستدرك حديثه:

ـ وقد يكون عدد دوراتها أكثر من ذلك.. كانت السيارة مزدحمة بالشبان والفتيات، ورائحة الخمر تفوح منهم. أما الدخان، فكانت نوافذ السيارة كمدفأة للحطب، تتصاعد منها السحابات السوداء، لقد ارتطم رأس السائق بالمقود، وهو يحاول التشبث به، لكن رغم ذلك أتم طريقه بمساعدة فتاة بجواره..

بعينين غائرتين، والدماء غمرت الأرض الصلدة، يحاول رفع يديه، كأنه يريد أن يشير بيده لشيء، وقد اختلط الواقع بعالم آخر، شخصت عيناه، وامتزجت بنظرة واهنة وغاضبة، ثم فقدَ وعيه مجددًا. لم ينتبه جمهرة المتحلقين له، فكل تركيزهما على صاحب الوجنتين الحمراويتين، وهو يروي التفاصيل بكل تحركاته، متفاعلًا أكثر بقسمات وجهه، وفي كل مرة يضيف أمرًا آخرًا نسيَه في المرة الأولى..

لقد تحدث كثيرًا كمن يتناول كلمة في ندوة، لا هدف منها غير لفت الأنظار، فلا الموضوع يجيده، ويفيد، ولا يتكلم باقتضاب من غير تشدق، ويريح..

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الحاصد	٧
إسماعيل	١٥
ماتريوشكا	٣١
القضية	٤٧
ورقة حلوى	٥٩
تقاليد بالية	٦١
اللوحة..	٦٥
الدمار الذيذ	٦٩
بأي ذنبٍ أُخذ	٧٣
مذكرات مكتئب	٨٣
فوضى الروح	٩١

لقاء عابر ١٠١
أنا طفل ١١٣
الجنة المفقودة ١١٧
توأم القرية ١٢٥
الحائكة ١٣١
حقيبة سفر ١٣٥
عطلة نصف العام ١٤٥
فاقد الذاكرة .. يتذكر! ١٥٥
قهوة إليسيا ١٦٥
عالم افتراضي ١٧٥
الإنسانية ١٨٩
الوداع ١٩٩
وقت مستقطع ٢٠٣